تجليَّات جَبَل

مقامات المقدمة عربية وعودة يأجوج ومأجوج

www.bbibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيبلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ بيبلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

تجليَّات جَبَل

مقامات المقدمة عربية وعودة يأجوج ومأجوج

روايةِ

قادة جليد

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: تجليات جبل

اسم المؤلف: قادة جليد

تصميم الغلاف: المثقف

رقم الإيداع: 29996 /2017

الترقيم الدولي (ISBN) : 978 - 977 – 6607 -67- 8

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 00201065534541- 00201208868826

صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

الإهداء

إلى روح أمي الهامل ستي رحمها الله ، التي ألهمتني بمشاركتها في ثورة التحرير و حكاياتها عنها روح هذه الرواية .

إلى روح والدي ميلود رحمه الله ، الذي عاش في صمت و عمل في صمت و رحل في صمت ،و لكن تبقى الآثار و الذكرى الطيبة.

المؤلف

(1)

حكت لي خالتي سعدية رحمها الله ، أن أبي قد استشهد في نفس الأسبوع الذي ولدت فيه ، فقد حاصرتهم قوات الجيش الفرنسي من كل الإتجاهات و قصفتهم بقنابل النابالم الحارقة و المحرمة دوليا، جرت هذه المعركة بمحيط هذا الجبل التاريخي و الأسطوري و التي لا تزال تحمل إسمه إلى اليوم ، وجبل مناور لمن لا يعرفه ، جبل مهاب تكتنف صاحبه القشعريرة والخشوع و التأمل عند رؤيته للمرة الأولى ، كيان روحاني مليئ بالأسرار و الملكوت ، و لا يزال إلى اليوم يحتفظ بأسراره و طلاسمه في عقول الناس و نفوسهم و يتغنى بملاحمه شعراء الشعر الشعبي في الأسواق و المناسبات الشعبية ، و من بين هذه الأسرار التي يحكيها الناس و يتداولونها فيما بينهم جيلا بعد جيل ، أن سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء يلتقي كل سنة بأولياء الله الصالحين و يصلي بهم عند قمة الجبل ، و يستدلون بذلك ، أن في نهاية كل سنة تنبعث شعلة متوهجة من أعلى القمة تتبعها أنوار متلألئة بمختلف الألوان ، مما جعل هذا الجبل مزارا دائما لأصحاب الحاجات ممَن يبتغي بركة أولياء الله الصالحين ، و ترى الناس فرادى و جماعات ينشدون الأهازيج و هم يتسلقون قمته:

_ يا جبل مناور

_ يا جبل سيدي عبد القادر

_ يا صاحب الكرامة و البشائر

_ يا مولى بغداد

_ يا سلطان الأولياء

_ أعط على قدر النية

_ لكل من جاءك زائر

_ يا مولى بغداد

_ يا سلطان الأولياء

_ يا سيدي عبد القادر

لقد كان يوما حزينا و مشهودا في تاريخ الثورة بمنطقة معسكر ، إذ لم تكن المعركة متكافئة من حيث العدة و العدد ، و لكن المجاهدين المتمترسين بالإيمان أبلوا البلاء الحسن و هذا بجوار هذا الجبل المبارك ، كما استطاعوا أن يكبدوا العدو الفرنسي خسائر جسيمة في الأرواح و العتاد بصدورهم العارية المفتوحة و يقينهم القوي بعدالة قضيتهم ، و بينوا للمستدمر الغازي أن هذه الأرض الطاهرة و إن نطقت فإنها سوف تنطق بلسان عربي مبين ، غير قابلة للإحتلال او المساومة أو الرهن كما كان يقول الشيخ مصالي الحاج زعيم الحركة الوطنية في الجزائر ، و أن هذا الشعب العربي الأبي الحر مستعد للتضحية من أجلها حتى آخر فرد

من أبنائه ، حتى آخر قطرة من دمه ، و عندما غابت الشمس و أرخى الليل سدوله ، بدأ المجاهدون يتفقدون الشهداء و الجرحى ، و كان أبي رحمه الله في النزع الأخير ، فقط إخترقت ثلاثة رصاصات غادرة صدره و تقلص جسمه النحيل ، و الرواية على ذمة سي العربي رفيق أبي في كتيبة سي رضوان الضابط المسئول ، الذي إستشهد هو أيضا في هذه المعركة . كان أبي و هو يسلم الروح لبارئها ينظر إلى السماء ووجهه متورد تعلوه ابتسامة حزينة ، يتمتم و يشير بأصابعه ثم يبتسم مرة أخرى، كأنما يتحدث إلى ملائكة السماء و أولياء الله الصالحين يحيطون به ، و سيدي عبد القادر الجيلالي يعرج به إلى مقامه الزكي بجوار ربه ، نظر إليه سي العربي بعدما سكنت حركاته نظرة مودة و محبة و وداع محاولا معرفة ما يجول في خاطره و إن كانت له وصية أخيرة يوصي بها ، تشجع أبي محاولا استهلاك آخر طاقة متبقية في جسمه المثخن بالجراح و راح يردد الشهادتين رافعا سبابته إلى السماء ، لم يتمالك سي العربي نفسه ، اقترب من أبي و سأله إن كانت له وصية ، و لكن أبي كان يردد:

_"عربية عربية ، يا سيدي عبد القادر الجيلالي"

أدرك سي العربي أنه لم يكن معنيا بهذا الخطاب و أن أبي يتكلم على موجة أخرى لا يعرفها الأحياء أو البشر العاديون ، لذلك راح سي العربي يكرر سؤاله مرة أخرى :

_ هل توصي بشيئ يا أغلى الرجال ؟

و عندها أشار أبي إلى سي العربي أن يقترب منه ، أمسك بيده و همس في أذنه بصوت متقطع :

_ "ابني عبد القادر يا سي العربي "....

شد سي العربي على يديه و طمأنه :

_ إبنك أمانة في رقابنا جميعا إن كان لنا في العمر بقية ، أعاهدك بالله و رسوله و أوليائه و سيدي عبد القادر الجيلالي ، و كل ما تؤمن به أني سوف أحفظ وصيتك ما حييت و أني سوف أبلغها لإخوانك المجاهدين ، بل إلى كل الشعب الجزائري ، ثم ذرف دموعا ساخنة و جسمه يهتز من شدة التأثر و هو يودع أحد أصدقائه المخلصين في الجهاد.

_ إنا لله و إنا إلـيه راجعون.

و بعد انجلاء غبار المعركة ، تداعى و تجمع الأهالي و المسبلون من كل مكان لإعانة المجاهدين على مداواة الجرحى و دفن الشهداء بالشكل الذي يليق بمقامهم ، و لكن في الليل و على غير العادة إنبعثت شعلة متوهجة من أعلى الجبل و أنوار متلألئة غاية في الروعة و الجمال .

(2)

كان أبي رحمه الله فلاحا بسيطا ، نحيل الجسم قوي القلب ، لا تفارق الإبتسامة وجهه الصغير ، يحرث الأرض و يعيل العائلة منها ، و كان جدي قدس الله سره و نور قبره و طيب ثراه ، شيخا وقوراً مهاباً في قريته ، يدرس القرآن الكريم و علوم الدين في الزاوية التي أسسها الأجداد ، و كانت هذه الزاوية قبلة لطلاب العلم من القرى المجاورة ، و عندما اندلعت ثورة التحرير الجزائرية سنة **1954** كانت الأخبار ترد تباعا و أحيانا بشكل متقطع ، و كان يتلقاها الأهالي بكثير من الدهشة و الكبرياء و كان الكثير منهم يتساءل :

_ كيف لشعب أعزل بدون سلاح، أن يحارب فرنسا بجيشها وأسلحتها الفتاكة ، و هي عضو في الحلف الأطلسي؟

وظل الناس يتساءلون إلى أن جاء اليوم الموعود الذي قطع الشك باليقين ، إذ بعد صلاة العشاء بالزاوية ، طلب جدي من المصلين بعدم المغادرة لأن ضيفا وافدا سوف يلتقي بهم و يكلمهم في أمر خطير .

أجلس جدي سي قابيل إلى جانبه في فناء الزاوية في ليلة مقمرة تتلألأ نجومها ، مما زاد المكان هدوءًا و سكينة ثم خاطب الحاضرين :

_ أيها الإخوة ، أيها المؤمنون ، نتشرف اليوم باستقبال سي قابيل الذي بعثته قيادة الثورة لينقل لكم رسالة من إخوانكم المجاهدين ، و كما تعرفون إن أرضنا محتلة من طرف الكفار الفرنسيين و هذه الأرض هي أرضنا ، أرض آبائنا و أجدادنا ، فيها ولدنا و فيها نحيا و نموت ، و لكن يجب تحرير هذه الأرض حتى يعيش فيها أبناؤنا أحراراً فوق أرضهم و ليس عبيدا و خداما لفرنسا ، و بصفتي شيخ هذه الزاوية فإنني أفتي بالجهاد تطبيقا لشريعة الله و ديننا الحنيف .

سكت الجميع برهة ، لحظة تأمل وتجميع للهمم و استحضار للقناعات و طرد الخوف ، و ما هي إلا لحظات حتى تعالت الأصوات من كل جانب :

_ الجهاد ، الجهاد ، الجهاد ، حي على الجهاد .

عندئذ استبشر سي قابيل خيرا متأكدا من نجاح مهمته، و بعد أن شكر جدي و الجميع و الدموع تنهمر من عينيه ، راح يؤكد للحاضرين بصدق قوي ، فيه عزيمة و إرادة و تأكيد و إباء :

_ أيها الإخوة ، إن هذه الأرض هي أرضنا ، أرضكم، أرض أبنائكم و آبائكم و أجدادكم، لم تكن يوما تابعة لفرنسا و لن تكون ، لقد إستولى الإستعمار على أرزاقنا و أعطانا البؤس و الفقر و الجهل ، إن هذه الأرض هي أرض الإسلام ،

أرض الأمير عبد القادر و الشيخ ابن باديس و بوعمامة و لالة فاطمة نسومر ، إن آباءكم و أجدادكم لم يسكتوا على الإستعمار ، لقد قاوموه و حاربوه ، و جاهدوا في الله حق جهاده ، إن هذا الإستعمار البغيض لا يمكن محاربته بالسياسة ، لأنه إستعمر هذه الأرض بالقوة ، و ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، فاشهدوا أيها الإخوة أن هذه الأرض، أرض جزائرية ، عربية إسلامية ' أرض حرة عزيزة و لقد جئت إليكم اليوم لأختبر إيمانكم بربكم ووطنكم لأنه لا سبيل لتحرير هذه الأرض إلا بالجهاد و الإستشهاد في سبيل الله ، فمن أجل أن تحيا الجزائر لا بد أن يموت أغلى الرجال .

و ما كاد سي قابيل ينهي كلامه حتى تقدم أبي من وسط الحاضرين و كان أول المتطوعين المجاهدين في سبيل الله و الوطن ، ثم تبعه الآخرون ، خاصة من فئة الشباب ، و حينها إعتلت إبتسامة عريضة وجه جدي و زادت وجهه إشراقا و هو يردد :

_ الله أكبر ، الله أكبر، إنا لله و إنا إليه راجعـون .

(3)

في يوم ممطر حزين تضيئه صرخات الرعود ، بين الفينة و الأخرى ، كانت هناك حركة غير عادية في بيتنا ، نسوة يدخلن و يخرجن و جدي يتفقد البيت بين اللحظة و الأخرى و كان عمي يتحدث إلبه و يطمئنه ، إنه اليوم الذي ولدت فيه و الذي كان ينتظره أبي بفارغ الصبر في آخر زيارة له لبيتنا عندما علم أن أمي حبلى و أنها في الشهر الأخير ، اشتد المخاض على أمي و هرعت النسوة لمساعدتها لإستقبال المولود الجديد ، إنها مسئولية كبيرة يشعر بها الجميع لأن هذا الوافد الجديد أبوه مجاهد يفترش الأرض و يلتحف السماء في الجبال الشامخات الشاهقات لتحرير الأرض و الوطن من الإستدمار الفرنسي الكافر ، و كانت النسوة في فناء البيت يتبادلن الهمسات و الكلمات في وقار و سكينة و كانت الواحدة تقول للأخرى:

_ مسكينة عربية لم أر إمرأة تلد مثلها من قبل ، إن وجهها شاحب و جسمها يتصبب عرقا ، الله يستر.

و تجيبها الأخري :

_ مسكين هذا المولود الجديد يأتي إلى الدنيا و أبوه غائب ، و الله أعلم إذا كان حيا أو ميتا .

كانت أمي عربية واحدة من بنات العائلات في القرية ، و قد إختارها جدي زوجة لأبي لأنها ذات أخلاق عالية ، ضعيفة البنية مثل أبي شعرها

أسود كالفحم يتدلى على كتفيها و عيناها سوداوتان ، كانت لا تتحدث كثيرا إلا عند الضرورة تحنو على الفقير و اليتيم و تحترم الصغير و الكبير و تهتم بمقامات أولياء الله الصالحين ، خاصة مقام سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء الذي ينتصب مقامه في أعلى جبل في وسط الغابة المحيطة بالقرية ، و كانت تذهب كل يوم جمعة حاملة معها البخور و العطور لتنفث روائحها على قبور أولياء الله الصالحين و تشعل الشموع كل يوم قبل المغرب في أركان و زوايا المقامات المخصصة لذلك ، حتى أطلق عليها إسم المقدمة و هي رتبة دينـية و اجتماعية تعطى لمن يهتم بشؤون أولياء الله الصالحين و مقاماتهم و مزاراتهم ، أما إسمها فقط سماها جدي لما ولدت عربية و هو تأكيد على أننا عرب مسلمون و لسنا فرنسيين كما تدعي فرنسا .

و أخيرا علت الأصوات و سمعت الزغاريد داخل البيت و أرسل عمي من يخبر جدي بالزاوية و ما هي إلا لحظات حتى حضر الجميع ، لقد ولدت في ذلك اليوم يوم الخميس و بصحة جيدة ، كانت أمي تبتسم و الناس متحلقون حولها يطمئنون و يباركون ، كانت بين الحين و الآخر ترفع بصرها إلى السماء ، ربما كانت تفكر في أبي و تتمنى لو كان حاضرا ، أمر جدي على الفور بذبح خروفين ، خروف للمناسبة و خروف يتصدق به على فقراء أهل القرية و توالت التبريكات على أمي من كل الأنحاء و حتى القرى المجاورة وانتشر الخبر و ذاع و ردده الجميع في كل الأمكنة و المناسبات .

_ المقدمة عربية خديمة سيدي عبد القادر الجيلالي ولدت مولودا كالقمر.

و دخلت امرأة على أمي و كانت آخر المهنئين في نهاية الأسبوع الذي ولدت فيه و سألتها:

_ كيف أسميت هذا الأسد الجميل ، ربي يخليه لك إن شاء الله ؟

فأجابتها أمي بفخر و اعتزاز :

_ لقد سماه جده عبد القادر تبركا بمولانا سيدي عبد القادر الجيلالي و سيدنا الحاج الأمير عبد القادر بن سيدي محي الدين .

(4)

كان يوما مشهودا مليئا بالحزن و المرارة ، سي العربي رفيق أبي في الجهاد رفقة اثنين من المجاهدين يأتون ليلا ، و يطرقون باب البيت طرقا خفيفا ، و بعد لحظات ينهض عمي عمر و زوجته تمسك بذراعه خائفة و مرعوبة ، لعلهم العسكر جاؤوا من أجل الإنتقام أو لعلهم الحركى أو عملاء الإستعمار .

هدأ عمي من روعها مؤكدا أن طرقات الباب تؤكد أن الزائر من الجهة الصديقة و ليس العدوة فتح عمي الباب فسمرت عيناه في وجه عمي سي العربي و هو يحمل الرشاش على كتفيه ، ظن لأول مرة أن أبي جاء لزيارة إبنه ، المولود الجديد ، و لكن عندما لم يره اضطربت أفكاره و راح يفكر في كل الاحتمالات .

_ هل أنت من العائلة .... سأل عمي العربي ؟

_ نعم أنا أخوه .

_ هل أبوك هنا ؟

_ إنه في البيت سأوقظه حالا .

و ما كاد يلتفت وراءه حتى كان جدي واقفا أمام الجميع بلحيته البيضاء و مسبحته التي لا تفارقه أبدا ، نظر إلى عمي العربي نظرة تفهم و رحب به و أدخله إلى المنزل و اشترط عليه أن لا يتحدث في شيء

حتى يقوم بواجب الضيافة، فاندهش عمي العربي من طريقة استقبال جدي له و سايره في شروطه و لم ينبس ببنت شفة ، و بعد تناول الكسكسي باللحم أعدت لهم جدتي اِبريقا من القهوة ، و بعد إحتساء الفنجان الأول قال جدي لعمي العربي :

_ الآن و قد قمنا بواجب الضيافة يمكنك أن تخبرنا غن المغزى من هذه الزيارة المفاجئة ؟.

لم يعرف عمي العربي كيف يبدأ الكلام و جمد وجهه و اغرورقت عيناه بالدموع ، و حينها ربت جدي على كتفيه و قال :

_ إنا لله و إنا إليه راجعون .

إنحلت عقدة لسان عمي العربي و راح يعدد خصال الشهيد و يطلب من جدي أن يتحلى بالصبر و يبلغه تعازي قيادة جيش التحرير له و لأفراد عائلته ، و بعد ذلك تذكر عمي العربي وصية الشهيد

_ لقد أوصى الشهيد بمولوده خيرا .

سأل عمي العربي و هو لم يعرف إن كان المولود ذكراً أو أنثى فأجابه جدي:

_ إن المولود بخير و هو ذكر و قد سميناه عبد القادر.

تعجب عمي العربي و راح يتبادل النظرات مع رفقائه المجاهدين ، كيف كان يعرف الشهيد أنه سوف يرزق بذكر

ويسمى عبد القادر ، نظر عمي العربي إلى جدي نظرة تبجيل واحترام و راح يقبل يديه و جدي يتمنع و قال :

_ لقد كان الشهيد مباركا و كلكم عائلة مباركة.

شكر جدي عمي العربي و طلب منه المبيت حتى الغد ، لكن عمي العربي أوضح له أن مهمته لم تنته بعد و إنه بصدد زيارة قرية أخرى و عائلة أخرى ليبلغهم استشهاد إبنهم في معركة مناور .

إختفى عمي العربي في الظلام الدامس رفقة زملائه و بقي جدي في فناء البيت و هو يتأمل مسبحته و يفكر في الغد، تنفس عميقا و استغفر الله كثيرا و راح يردد و هو يهم دخول البيت

_ الله يكون في عونك و يقدرك على هذه المصيبة يا المقدمة عربية .

(5)

إستشعرت القوات الفرنسية الخطر الداهم من قريتنا فقامت بعملية تمشيط واسعة و اعتقلت الكثير من أفراد القرية و خاصة العائلات التي إلتحق أبناؤها بالثورة ، و كان جدي في طليعتهم ، و قاموا بتجميعهم و أرسلوهم إلى المعتقل من أجل التعذيب و الإستجواب بقرية سيدي محي الدين بمنطقة القيطنة و كان في استجوابهم رفقة القائد العسكري، الخائن سليمان ولد قدور المدعو يأجوج ومأجوج الذي عينته السلطات الاستعمارية قائدا على منطقتنا لمراقبتها و التبليغ عن المجاهدين و عن مراكز دعم الثوار و الشخصيات المؤثرة على الرأي العام.

لقد نال المعتقلون قسطا كبيرا من التعذيب خاصة الشباب منهم ، و كانت الأسئلة معروفة منذ البداية ، من يمول المجاهدين في الجبال و متى كانت الزيارات التي قادت سي قابيل إلى قريتنا ، و من استقبله من الأهالي و من كان ينظم له لقاءاته ، و كان أكبر سؤال من أجل الاستدراج و الخيانة ، من له الرغبة في الإلتحاق بالجيش الفرنسي و خيانة وطنه ؟ .

أبدى المعتقلون مقاومة شديدة في كتم الأسرار و عدم الوشاية و هم يذوقون صنوف العذاب المختلفة و الترهيب النفسي و الوعد و الوعيد ، لكن القائد يأجوج ومأجوج أكد للقائد الفرنسي العسكري أن جدي

و زاويته المنتصبة في القرية هي قلعة الثوار و المجاهدين أو الفلاقة بتعبير الإستعمار ، طلب القائد العسكري باستجواب جدي على الفور و كان في استجوابه طبعاً القائد يأجوج ومأجوج.

_ لقد أصبحت زاويتك مرتعا للفلاقة و الخارجين عن القانون ، أنت شيخ كبير تدرس القرآن الكريم و العلم و لكنك أصبحت مخربا تدعو للتمرد على أمنا فرنسا ، فرنسا دولة كبيرة و عظيمة و أنت تتحداها بأفكارك و بالطلبة البؤساء الذين تبعث بهم إلى الجبال ليلقوا حتفهم ، نحن نعرف كل شيء عنك فعيوننا لا تنام ، نعرف أن ابنك قد قتل في معركة مناور و نعرف أيضا بأنك المسئول عن كل الاجتماعات التي كان يعقدها سي قابيل في قريتك و القرى المجاورة ، إذا تعاونت معنا فسوف تصفح عنك فرنسا ، أما إذا كابرت و عاندت فسوف نحرق زاويتك و نصادر أرضك و نلحق إبنك بأخيه و الأمر يعود لك أولا و آخرا .

إبتسم جدي في وجه الخائن يأجوج ومأجوج و قال له :

_ إن ساعتكم قد توقفت ، و القضية ليست قضية شخص أو زاوية ، إن القضية قضية أمة بأسرها ، قد تقتلني و قد تقتل ولدي و تحرق الزاوية ، لكنك لا تستطيع أن تقتل إيمان شعب بكامله ، إن فرنسا هي أمك أنت ، أما أنا فأمي هي الجزائر و ديني هو الإسلام ، إنك لا تستطيع أن تفهم أن هذا الشعب قد ولد حرا و هو يريد أن يستعيد حريته من الاستعمار الذي صادر أرضنا و أرزاقنا و سربل أهلنا بالفقر و البؤس و

المذلة ، لقد توقفت ساعتكم يا سليمان و بدأ عهد جديد و لا يستطيع أحد مهما كانت قوته أن يوقفه ، و لا تغتر بالفتات الذي تعطيك إياه فرنسا ، فأنت معهم لكنهم ينظرون إليك كخائن لا يهمهم أمرك إن أصبحت حيا أو ميتا ، فضعاف النفوس مثلك كثيرون ، و بصفتي شيخا عالما فإني أدعوك إلى التوبة و أن تعود إلى جانب إخوانك و شعبك قبل أن ينجلي الليل و يبزغ فجر يوم جديد و قبل فوات الأوان .

غادر يأجوج ومأجوج قاعة الاستجواب و ذهب للقائد العسكري يترجم له ما جرى بينهم من حوار ، أشعل القائد العسكري سيجارة و الغضب باد على وجهه ثم راح يكلم القائد يأجوج ومأجوج :

_ إذن سوف نختبر هذا الشيخ في إيمانه الذي يتحدث عنه ، أحرقوا الزاوية و فتشوا البيوت و بعثروا أثاثها و أحرقوا كل المحاصيل الزراعية التي تعثرون عليها و أحضروا إبنه عمر إلى المعتقل و عذبوه أمام أبيه ، و سوف نرى من هي الأم الحقيقية لهذه الأرض ، أوباش ، صعاليك ، جهلة ، يتحدون فرنسا العظيمة ، سوف نرى ، سوف نرى .

و لم يمر وقت طويل حتى أحضروا عمي عمر إلى المعتقل مكبلا بالأصفاد و آثار الضرب بادية على وجهه ، أدخلوه إلى غرفة التعذيب رفقة جدي و شرعوا يذيقونه فنون العذاب و بإشراف مباشر من القائد يأجوج ومأجوج و مراقبة القائد العسكري ، لم ينطق جدي بكلمة واحدة و هو يرى فلذة كبده يتآكل أمامه من شدة العذاب حتى إسود

وجهه و جحظت عيناه ، و عندما أوشك على مشارف الموت تدخل القائد العسكري بإشارة منه ، فوجه القائد يأجوج ومأجوج على إثرها سؤالا و تهديدا إلى جدي

_ هل تعترف و تتعاون معنا أم نلحق إبنك بأخيه ؟

نظر جدي إلى القائد يأجوج ومأجوج نظرة إزدراء و احتقار ثم رفع مسبحته و أشار إليه :

_ قل لقائدك العسكري أيها الخائن ، انه لو رزقني الله بأكثر من ولدين لن أبخل بهم و أقدمهم فداء للوطن و تضحية في سبيل الله .

ثم نظر إلى إبنه نظرة محبة و مودة و هو يردد

_ إنا لله و إنا إليه راجعون .

و عندما أدرك القائد العسكري أن التعذيب لم يأت بنتيجة ، جن جنونه و سحب مسدسه و أطلق رصاصتين غادرتين ، واحدة في رأس عمي و الأخرى في رأس جدي .

(6)

شاع الخبر في قريتنا و كانت الصدمة كبيرة جدا ، ترك المزارعون حقولهم و السكان بيوتهم و تجمعوا أمام بيتنا و لحق بهم السكان من القرى المجاورة ، لم يكن إستشهاد جدي و عمي في يوم واحد و برصاصتين غادرتين أمرا يسهل تقبله أو تحمله ، كان الغضب يعتصر الجميع و راحوا يفكرون في كل الخيارات الممكنة و سمعت أصوات مدوية هنا و هناك تتقاذفها الأمواج البشرية المجروحة و المكلومة بأبنائها و أهلها .

_ لنذهب إلى المركز و نحرق من فيه و ليكن ما يكون ، لم تبق معيشة أو حياة نأسف على فقدانها ، لقد قتلوا شيخنا و ابنه و لا يزال أبناؤنا معتقلون هناك ، لم تأخذهم رأفة بالشيخ رغم كبر سنه و شيخوخته ، سيدفعون الثمن غاليا .

لكن الحاج عبد الوهاب رفيق جدي بالزاوية و مساعده ، كان شيخا فاضلا مدركا لعواقب الأمور ، طلب من الجميع التريث و التفكير بعقل و روية و راح يشرح لهم الوضع .

_ إن ذهبنا إلى المركز بهذه الطريقة سيقتلوننا جميعا ، سوف آخذ معي خمسة أفراد من كبار القرية و أعيانها ، نطالبهم بجثامين الشهداء و إطلاق سراح المعتقلين ، ندفن موتانا ثم بعد ذلك نتصل بسي قابيل و قيادة الثورة لاتخاذ الموقف المناسب و الرد المناسب .

إقتنع الجميع بوجهة نظر الحاج عبد الوهاب و تفرقوا في كل الإتجاهات و هم يتوعدون المجرمين بالإنتقام القريب .

إستقبل القائد العسكري و الخائن يأجوج ومأجوج الحاج عبد الوهاب و الوفد المرافق له بمكتبه ، إستفسر عن سبب هذه الزيارة متظاهرا باللامبالاة و محاولا التقليل من خطورة الأمر و الجريمة الشنيعة التي ارتكبها في حق القرية و سكانها ، ثم تدخل الخائن يأجوج ومأجوج مسايرا لقائده العسكري و موجها السؤال للحاج عبد الوهاب :

_ إن القائد العسكري مشغول و ليس له وقت ، إن كانت لك شكوى أو طلبات فتقدم بها على الفور و عد إلى بيتك سالما .

و أجابه الشيخ عبد الوهاب بدون مقدمات و على الفور.

_ نريد جثامين موتانا الشهداء.

_ إنهم مجرمون و خارجون عن القانون ، و قد نالوا جزاءهم الذي يستحقونه و سوف ندفنهم بطريقتنا الخاصة.

_ إنهم مجرد جثامين ، و أرى أنكم تخشوهم حتى بعد موتهم ، لقد جئناكم نيابة عن أهل القرية و القرى المجاورة ، نريد جثامين موتانا لندفنهم وفق الشريعة الإسلامية .

و ما كاد الشيخ عبد الوهاب ينهي كلامه حتى إنتفض الخائن يأجوج ومأجوج يرغي و يزبد من شدة الغضب.

_ هل جئت هنا لتهديدنا ، تهدد فرنسا بالحثالة الذين تمثلهم ، سوف يكون حسابك عسيرا أيها الشيخ الشقي .

طلب القائد العسكري من الخائن يأجوج ومأجوج أن يهدأ و يصمت ثم راح يخاطب الحاج عبد الوهاب

_ سوف نعطيكم جثامين موتاكم ، و أنت تعرف أننا نحترم شيوخ الدين ، و لكن شيخكم قد تمادى في عدائه لنا و حرض ضدنا أهل القرية و الكثير منهم اليوم في الجبال خارج القانون ، يحملون السلاح ضد أمهم فرنسا ، لم نكن نتمنى أو نريد أن تكون نهايته مأساوية هكذا ، و لكن في نهاية الأمر كل واحد يتحمل مسؤوليته مهما كان سنه أو مكانته أو مركزه الاجتماعي ، سوف نعطيكم الجثامين يا سي عبد الوهاب و لكن بشروط .

_ هل هناك شروط في إسترداد الأموات و دفنهم ؟

_ نعم و هذه شروطنا ، الدفن يكون ليلا ، و بحضور أفراد العائلة فقط ، إن قبلتم ذلك سلمناكم الجثامين حالا .

فكر الحاج عبد الوهاب قليلا ، و تراءت له صورة صديقه الشيخ و إبنه و نطق صوت بداخله "إكرام الميت دفنه " أعلن موافقته ثم خاطب القائد العسكري :

_ و ماذا عن بقية المعتقلين ؟

_ أمر سهل جدا ، سيذهبون معك على الفور و لكن وفق شروط .

_ و ما هي هذه الشروط ؟

_ أن تضمنهم ، بأن تمضي تعهدا رسميا على ذلك ، أن لا يستقبلوا الفلاقة بالقرية و لا يتصلوا بهم و أن لا يصعد أحد منهم إلى الجبال .

تأمل الشيخ شروط القائد العسكري و هو يدرك أن هذا الخداع مستحيل ، و أنه بعد استشهاد شيخ الزاوية و ابنه عمر ، فإن أغلب أهل القرية و خاصة الشباب سوف يلتحقون بالجبال في أقرب وقت ممكن و في أول زيارة لسي قابيل المسؤول على منطقتنا ، و بعد تبادل النظرات و انتظار الجواب فاجأهم الشيخ.

_ أنا شيخ كبير و لا أستطيع حتى أن أتحمل مسؤولية نفسي ، أنا لا أستطيع و لا أعدك بشيء.

فرد عليه القائد العسكري بغضب و الشر يتطاير من عينيه :

_ فليكن إذن، كما تريدون و سوف نرى .

(7)

أخبرتني خالتي سعدية و قبل أن أولد، أن أمي رأت في المنام سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء ، و طلب منها أن تبيت في مقامه ليلة الجمعة و أن تكون صائمة ، ترددت أمي في البداية و لكن بعد أن تكرر المنام عدة مرات عقدت العزم ، و لكنها راحت تفكر كيف تقنع جدي و هي إمرأة أن تبيت وحيدة في مكان معزول بعيد نوعا ما عن القرية ، و بعد أن جاء جدي من الزاوية بعد أداء صلاة العشاء و قراءة الورد ، فتحت له أمي الباب ، و بعد أن ارتاح قليلا في حجرته و أخرج كتابا قديما تعود أن يقرأ منه كلما آوى إلى فراشه و أظنه كتاب يتكلم عن كرامات سيدي عبد القادر الجيلالي طرقت أمي الباب في استحياء ، و بعد أن تلقت الإذن بالدخول ، استقبلها جدي ببشاشة و ابتسامة عريضة و راح يمدحها و يثني عليها :

_ كبف حالك المقدمة عربية ؟ لقد جئت في وقتك ، إني أقرأ في كتاب لسيدي عبد القادر الجيلالي يتكلم فيه عن كرامات الأولياء و صفاتهم ، و لقد وجدتك تحملين الكثير من هذه الأوصاف ، إني أسعد رجل فوق هذه الأرض و شرف و فخر لي أن تكوني زوجة ابني و فردا عزيزا من عائلتي .

شعرت أمي بحياء شديد و هي تسمع هذا الإطراء و هذا المدح و الذي لم يكن مجانبا للحقيقة ، ولكنها في قرارة نفسها أحست بسعادة غامرة

لأن هذا الأمر سيسهل عليها مهمتها في إقناع جدي بما عزمت عليه تنفيذا للرؤية الصادقة ، أدرك جدي بحكمته و خبرته أن هناك أمرا يشغل بال أمي و أن الخجل و الحياء قد غلبها لتعبر عنه فأراد أن يسهل عليها المهمة .

_ هل هناك شيء تريدين أن نتحدث فيه يا خادمة الأولياء ؟

_ في الحقيقة سيدي ، لقد جاءني سيدي عبد القادر الجيلالي في المنام و طلب مني أن أبيت ليلة الجمعة في مقامه و أن أكون صائمة ، لم أكن لأعرض عليك هذا الأمر لو لم يتكرر هذا المنام لعدة ليالي .

نظر جدي إليها في استغراب و راح يردد :

_ سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله

إعتقدت أمي للوهلة الأولى أن جدي يعترض على ما نوت عليه ، و لكن اعتقادها لم يكن في محله ، و هذا عندما أجابها جدي قائلا :

_ إن ما عرضته علي في هذه اللحظات موجود في هذا الكتاب و أشار إليه ، إنه كتاب سيدي عبد القادر الجيلالي ، إنك لم تقرئيه بكل تأكيد لأنك لا تعرفين لا القراءة و و لا الكتابة ، و لكنك تعرفين و تطلعين على أشياء تحجبها عنا الكثير من الكلمات و الكتب .

أغلق جدي الكتاب و راح يهم بالنهوض و ساعدته أمي على ذلك ، و قبل رأسها و حينها أذن لها أن تبيت ليلتها المباركة في مقام سيدي عبد القادر الجيلالي .

_ أنت امرأة مباركة يا ابنتي فاستجيبي لهذه الدعوة المباركة ، عسى الله أن يفتح عليك و علينا .

قبلت أمي يد جدي و راحت تشكره و الدموع تنهمر على خديها، لست أدري هل من شدة الفرح أم من صعوبة المهمة و ما ينتظرها في ليلتها، وحيدة على قمة جبل محاط بالصمت و الجبروت و الملكوت.

في يوم الخميس و بعد أدائها لصلاة العصر اطمأنت أمي على شؤون البيت كما يجب أن تكون و توجهت إلى رحلتها استجابة للنداء الروحاني و هي كلها عزم و إرادة و تواضع شديد .

و في طريقها إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي صادفت في طريقها الكثير من نساء أهل القرية الذين راحوا يلقون عليها التحية و يدعونها لزيارتهم في بيوتهم لتحل عليهم و على أولادهم بركة هذه المرأة المؤمنة الزاهدة ، وعدت أمي الجميع بالحضور يوما ما عندما تسمح لها ظروفها ، و لكن في حقيقة الأمر كانت أمي تميل إلى العزلة و عدم الاختلاط بالناس ، و كانت تقول لمن يلومها على عزلتها :

_ لا أريد أن أنشغل بالناس عن رب الناس.

و لكنها كانت تقوم بواجباتها في المآتم و الأفراح و عندما يعود الحجاج من بيت الله الحرام و كانت خفيفة الظل قليلة الكلام ، تؤدي واجباتها و تنصرف في صمت داعية للجميع بالخير و البركة .

و كانت أمي تكره الغيبة و النميمة و الإساءة للناس و التفرقة بينهم ، فكان أهل القرية يحكمونها في النزاعات التي تحدث بينهم و كانوا يرضون بحكمها و ينفذونه على الفور ، و مرة جاء بعض المتخاصمين عند جدي و أحد الأطراف لم يعجبه الحكم ، فقال له جدي على سبيل العتاب

_ سوف نطرح أمرك على المقدمة عربية لتنظر فيه.

فما كان من المتقاضي إلا أن قبل الحكم الذي إتخذه جدي له و لخصمه و راح على الفور يقبل رأس جدي و يعتذر له ، و في حقيقة الأمر كان هناك قاضيان في القرية ، جدي يقضي بين الرجال و أمي تقضي بين النساء .

دلفت أمي إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، صلت ركعتين وأشعلت شمعتين وراحت تنتظر أوقات الصلوات المكتوبة المتبقية .

لم يخف جدي قلقه على أمي إذ بعد أداء صلاة العشاء في الزاوية وقراءة الورد فاتح سي عبد الوهاب في الموضوع الذي كان قد أخبره به سابقا ، فراح سي عبد الوهاب يبدد مخاوف جدي ويبشره :

_ لا تخف و لا تقلق ، إن المقدمة عربية محروسة بعين الله وإرادته زيادة على ذلك فهي تملك مفاتيح المقام واعتادت أن تغلق على نفسها الباب في مثل هذه المناسبات كما عهدناها دائما ، إني متأكد يا صديقي أن الله سوف يفتح عليها في هذه الليلة. فيجيبه جدي في قلق وإشفاق و آثار الإرتباك بادية عليه :

_ هل تدري يا سي عبد الوهاب أن المقدمة عربية قد ذهبت وهي صائمة ، و عندما سألت في البيت أخبروني أنها لم تأخذ زادا معها ، حتى الماء لم تأخذ معها .

عاد جدي إلى البيت ، و لم يغمض له جفن و هو يتخيل الأجواء داخل المقام المعزول و المخاطر المحدقة بها ، ماذا لو اقتحم اللصوص هذا المقام ، ماذا لو مرضت ، ماذا لو جرى لها شيء سوف أكون أنا المسئول ، أنا من سمحت لها بذلك ، ثم أخرج كتابه المعهود ليطرد به هذه الهموم و راح يقرأ دون توقف كأنه يقرأه للمرة الأولى حتى الساعات الأولى من الفجر .

أسرع جدي إلى الزاوية و بعد أداء صلاة الفجر ، اصطحب رفيقه الشيخ عبد الوهاب و توجها إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي و الخواطر تلعب بعقولهم خاصة جدي الذي لم يخف قلقه و ارتباكه ، بينما كان الشيخ عبد الوهاب يطمئنه و يخفف عليه ، و بعد أن إقترب الرفيقان من المقام و على بعد مسافة قليلة رأيا نورا منبعثا من السماء و هو محيط

بمقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، تبادلا النظرات في ذهول و تملكهم الخوف و تسمرت أقدامهم و ثقلت و توقفا عن الحركة ، و بدأ جدي يقرأ في المعوذتين ، ثم سورة يس و أخيرا سورة الفتح ، و عندئذ انفكت عقدة لسانهما و حملتهما أرجلهما من جديد ، و عندما اقتربا من الباب اختفى النور كأنه لم يكن ، فتحت لهما أمي الباب بدون أن يطرقانه كأنما كانت في انتظارهما و تنظر إليهما رأى العين ، و كم كانت دهشتهما كبيرة عندما رأوا مائدة مليئة بالطعام و فاكهة في غير وقتها و آنيتين من الفضة واحدة مملوءة لبنا و الأخرى عسلا ، و بكثير من المحبة و الخشوع راح الرجلان يقبلان رأس أمي و يتبركون بها و يسألونها الدعاء ، نظرت أمي إلى المائدة و طلبت منهما أن يشاركانها طعامها لأنه أذن لها أن تفطر في هذا الوقت بالذات رفقة من يزورها بعد صلاة الفجر ، و بعد أن تحلقوا حول المائدة قالت أمي لضيوفها .

_ إن الله قد اختاركم أن تأكلوا من هذه المائدة المباركة ، و لكن بشرط .

و عندئذ تجهم وجه جدي و رفيقه و راحوا ينتظرون معرفة هذا الشرط الذي يحول بينهم و بين هذه الكرامة و عندئذ أردفت أمي :

_ أن يبقى هذا الأمر سرا و لا يطلع عليه أحد من أهل القرية .

و عندئذ إبتسم الرفيقان و راحا يأكلان من المائدة المباركة ، و قال جدي في قرارة نفسه : " إن الكرامات التي كنت أقرأ عنها في الكتب أصبحت أراها و أشمها و أتذوقها سبحان الله و بحمده و الله أكبر .

و بعد أن أكل الجميع و حمدوا الله على ذلك ، طلب الشيخ عبد الوهاب طلبا من أجل التبرك و أراد أن يشرك جدي فيه ، طلب من أمي أن يأخذ آنية اللبن و جدي آنية العسل على أن تحتفظ أمي بالمائدة ، وافقت أمي بابتسامة صادقة و قالت في حنو و تواضع:

_ إنكما تستحقانها عن جدارة و الله المستعان على كل شيء .

غير أن خالتي سعدية أخبرتني بعد ذلك أن هذه الأواني و المائدة اختفت جميعا بعد وفاة أمي و انتقالها إلى الرفيق الأعلى .

(8)

توالت الأحزان على بيتنا واشتدت النوائب وتسارعت الأحداث ،واستشهد كل أفراد العائلة ولم يبق لنا إلا بعض الأقارب ، ولكن رغم أن حرارة اليتم كانت مريعة إلا أن اهتمام أهل القرية بنا ووصية الحاج عبد الوهاب جعلتنا نشعر بدفء العائلة الكبيرة وحنان الناس رغم نظرة الإشفاق البادية على وجوه ونظرات الكثيرين التي كانت تزعج وتحرج أمي أحيانا ، وأصبحت مصيبتنا حديث العام والخاص في الأسواق والمزارع والبيوت والقرى المجاورة وكان أحدهم يقول للآخر : _ إن مصيبة المقدمة عربية مصيبة عظيمة لا تستطيع الجبال أن تتحملها. _ ويجيبه آخر:

- إنها امرأة مؤمنة، ولا تنس أنها خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي وأولياء الله الصالحين ، الله يكون في عونها ويساعدها على تربية اليتيم.

كان أهل القرية وخاصة الأقارب منهم ، ينتظرون ردة فعل أمي على إثر هذه الفاجعة الأكبر ، إستشهاد أبي وجدي وعمي وحرق الزاوية ، كان الجميع يتوقع انهيارها أو أن تصاب بنوبة من الجنون والغثيان، ولكن اعتقادهم لم يكن في محله ، إذ واظبت أمي على الصلاة و صامت عن الكلام و نذرت أن تصوم يوما و تفطر آخر رأفة بي لأني كنت رضيعا ، كما نذرت أن تصوم الدهر كله بعد الفطام إلى أن تلقى ربها و تلتحق بالرفيق الأعلى إلى جوار زوجها الشهيد .

إحتفظت أمي بمسبحة جدي و أصبحت لا تفارق أصابعها ليلا و نهارا ، و كان الناس يعتقدون أن هذه المسبحة فيها سر رباني و أنه ليس كل واحد مؤهلا لحملها ، إذا لم يبلغ درجة من الكمال و الرقي الروحي ، و هكذا تحولت أمي من مقدمة لولي الله الصالح سيدي عبد القادر الجيلالي إلى وليّة صالحة ، لها أسرار و كرامات و مناجاة ليلية ، فقد حكى الكثير من أهل القرية أنها كانت تأتيهم في المنام كلما زاروا مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، و فهموا من ذلك أن بركات هذا الولي الصالح قد أودعها مع أسراره الروحانية عند أمي مما جعل بيتنا يضيق بالزائرين الذين يطلبون الشفاء لأبنائهم أو طلب الرزق أو الذين يعزمون على أمر من أمور الدنيا أو الآخرة، و يطلبون من أمي أن تدعو لهم حتى ييسر الله أمورهم .

و في ليلة مقمرة على غير العادة قصد بيتنا سي قابيل رفقة الحاج عبد الوهاب ، فتحت لهم خالتي سعدية الباب التي جاءت لصحبة أمي و مرافقتها في هذه الظروف الصعبة و استقبلتهم أمي بالترحاب كما يليق بالضيوف، نظر إليها سي قابيل نظرة إشفاق و عيناه تعتصران من الحزن قبل أن تنهمر الدموع على خديه المرتعشتين ، و راح يقدم التعازي لأمي و للعائلة .

_ أيتها السيدة الفاضلة ، المقدمة عربية ، أقدم إليك تعازي جيش التحرير الوطني ، إني أعلم أن مصيبتك عظيمة و هي مصيبتنا جميعا ، و لكن تأكدي أن شهداءكم هم شهداؤنا ، هم شهداء الجزائر .

و أجابته أمي بصوت خافت :

_ الله يـــرحم الشـهداء .

ثم إنتابت سي قابيل لحظات من الغضب و راح يتوعد مشيرا بيديه .

_ و تأكدي يا سيدتي أن الخائن يأجوج ومأجوج و كل العملاء سوف يلقون عقابا شديدا على خيانتهم ، و عن قريب إن شاء الله سوف تسمعين أخبارهم .

ثم التفت إلى الشيخ عبد الوهاب الذي أخرج من جيبه رزمة من المال مغلفة بطريقة محكمة و ناولها إلى أمي التي رفضت على الفور ، و لكن بعد إلحاح سي قابيل قبلتها و ناولتها إلى خالتي سعدية ، و لكن في الصباح الباكر و كان يوم جمعة ، و أثناء زيارتها للمقبرة و وقوفها على قبر جدي و عمي و في مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، قامت بتوزيعها على جميع الحاضرين و خاصة من أصحاب الحاجات الذين تعرفهم أمي أكثر مما تعرف نفسها ، و أخبرتني خالتي بعد ذلك أنها لم تترك لنا شيئا من هذا المال ، رغم أننا كنا في أمّس الحاجة إليه .

(9)

دقت ساعة الحقيقة والحسم ، وجاء اليوم الموعود الذي يفي به سي قابيل بوعده للإنتقام لجدي وعمي وكل سكان القرية من جرائم الخائن يأجوج ومأجوج ، إذ حاصرت كتيبة من المجاهدين بقيادة سي قابيل القرية التي يقطن فيها هذا الخائن، وبعد جمع للمعلومات وترصد لحركاته من طرف المسبلين وتحقيقها وتأكيدها لدى إستخبارات جيش التحرير الوطني وقيادة الجيش بالمنطقة ، إستطاع سي قابيل أن يرسم الخطة المناسبة بطريقة محكمة للإيقاع بهذا الخائن الذي كان يأخذ كل إحتياطاته عند تنقله من أجل سلامته بإعتباره هدفا مشروعا للثوار .

أمر سي قابيل بمحاصرة كل منافذ القرية وقسم المجاهدين إلى مجموعات وكل مجموعة تستهدف خائنا من هذه القرية، لأن القائد يأجوج ومأجوج استطاع أن يغرر بالكثير من أبنائها ليرتموا في حضن الإستعمار ومعاداة ومحاربة أبناء جلدتهم .

وكان يردد دائما أمام أبناء قريته هازئا ومفتخرا .

_ هؤلاء الجياع الحفاة العراة قطاع الطرق يطردون فرنسا وهي دولة قوية وكبيرة إنهم مجانين وهذا أمر لا يصدقه الخيال .

ثم يبتسم إبتسامة صفراء خبيثة وبصوت جهوري مخاطبا الحاضرين .

_ ولد فاطمة يطرد فرنسا ويهزم جيوشها ، ثم يتبعها بضحكات وقهقهات فاحشة ، وينتفخ وجهه أكثر عندما يشاركه المجتمعون حوله هذه الضحكات والقهقهات.

في الحقيقة لم يكن ابن فاطمة إلا والدي رحمه الله وفاطمة هي جدتي التي أنجبت من أرعب فرنسا والخونة في نفس الوقت.

أما سي قابيل فقد اختار أن يكون هو شخصيا من يقتحم بيت الخائن يأجوج ومأجوج في الوقت المحدد والساعة المتفق عليها .

ظن الخائن يأجوج ومأجوج أنه بعد حرق الزاوية وقتل جدي وعمي والزج بالكثير من أبناء القرية في السجون والمعتقلات ، قد أخمد الثورة في هذه المنطقة وأنها لم تعد تشكل خطرا على الاستعمار وأعوانه ، وازداد يقينا عندما وصلته معلومات من الجيش الفرنسي وقائده العسكري المباشر أن أبي قد أستشهد في معركة مناور وكان هذا الخائن قد هجر بيته المتواجد بالقرية إلى حين ، خاصة عندما كان أفراد عائلتي على قيد الحياة ، وهذه العائلة التي كانت تمثل في نظره فتيل التمرد والعصيان ونشر الأفكار المعادية والهدامة ، ولقد استعجل بعض المجاهدين سي قابيل للإنتقام من هذا الخبيث الجبان ، إلا أن سي قابيل بحكمته ودهائه أراد أن يستدرجه ليلقى مصيره المحتوم ولن يكون ذلك ما لم يشعر هذا الخائن بالأمان ، لذلك أعطيت الأوامر بتوقيف العمليات

القتالية في قريتنا وقرية الخائن في انتظار اليوم المشهود أي حتى يقع الصيد في المصيدة مطمئناً كل الاطمئنان .

ولقد جاء اليوم الموعود ،فالأيام كما يقول القرويون عندنا مثل السنابل للتعبير عن كثرتها و تتابعها وكل سنبلة تأخذ نصيبها من الحصاد ذات يوم ،وها قد جاء اليوم المشهود ، مجموعة من المجاهدين الشباب يتقدمهم سي قابيل يقتحمون بيت الخائن وهو نائم مع أسرته ، زوجته و إبنه الجيلالي وبناته الثلاث ، يكسر سي قابيل باب الغرفة وهو يردد :

_ الله أكبر، الله أكبر، قد وقعت أيها الخائن أيها الكلب ، لقد جاء وقت الحساب .

فأجابه عمي العربي رفيق أبي في معركة مناور .

_ حاشا أن يشبه الكلب ، إن الكلب خير منه .

ولم يتمالك عمي العربي نفسه من شدة التأثر والانفعال

_ دعني أقطع رأسه يا سي قابيل.

تسمر الخائن يأجوج ومأجوج في مكانه وجحظت عيناه من شدة الصدمة وراح يستوعب الموقف تدريجيا ، ولم يعرف هل هو في علم أم في حلم ، ولم يتأكد من ذلك إلا بعد أن لكمه عمي العربي بقبضته القوية على وجهه أسقطته أرضا ، وحينئذ أدرك أن قيامته قد قامت ،

وأنه لن يستطيع أحد من الإنس أو الجن أن ينجيه اليوم من مصيره ، وأن موته المحتوم قليل في حقه ، لأنه لن يعوض مئات الشهداء الذين تسبب في قتلهم والآلاف من السكان الذين تسبب في سجنهم وتشريدهم وتجريدهم من ممتلكاتهم ، لذلك لم ينطق الخائن بكلمة واحدة وراحت زوجته وأبناؤه يصرخون وهم لا يعرفون مصيرهم ، وعندئذ هدأ سي قابيل عمي العربي بعد أن تجاوز حالة الإنفعال الشديد التي تملكته وهو يقبض على هذا السفاح ، كما أمر بقية المجاهدين بنفس الشيء ، وحينها تشجعت زوجة الخائن بعد أن استجمعت قواها الخائرة وراحت تترجى سي قابيل وهي تنظر إليه متوسلة وكلها رجاء .

_ يا أخي ، يا إخوتي ، نحن لا ذنب لنا، هل تعتقدون أني كنت موافقة زوجي فيما كان يفعل ضد أهله وقومه ووطنه ، لقد نبهته ونصحته ، لكنه لم يأخذ بنصيحتي ، أنا مجرد امرأة تابعة لزوجها رغم أني أكرهه وأكره اليوم الذي التقيت به ، أنا جزائرية مثلكم عربية ومسلمة وأنتم إخوتي وأهلي فما ذنبي أنا وذنب أطفالي، إنهم ملائكة .

ثم راحت تبكي وتولول وهي تتصور أن مصيرها مرتبط بمصير زوجها ، نظر إليها سي قابيل نظرة تفحص ممزوجة بالحسرة والألم وهو يتطلع إليها وأبناؤها ملتصقين بها كالتصاق الرضيع بثدي أمه ثم راح يتأمل وجه زوجها الذي أصبح أسودا مكفهِرا لم تبق منه قطرة دم، ثم توجه إليه بالسؤال :

_ أين هي أمك فرنسا لتنجيك منا أيها الخائن ، أين قائدك العسكري ، أين جاهك وسلطانك وجبروتك اليوم ، هل تعلم لن يحزن عليك أحد ، حتى عائلتك لن تحزن عليك لأنك عار عليها ، وحتى فرنسا لن تهتم لمصيرك هل تعرف لماذا ؟ لأن الذي يخون وطنه وأبناء جلدته لا ثقة فيه عند فرنسا ، لقد عشت خائنا وتموت خائنا وسوف يخلدك التاريخ بجرائمك لتكون عبرة لمن يعتبر، أما ابن فاطمة فقد عاش شريفا ومات شهيدا والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

ثم توجه بنظره إلى زوجة الخائن التي اختفى وجهها من جسمها وهي تسمع هذه الكلمات .

_ أما أنت يا أمة الله ، فلا خوف عليك ولا على أبنائك، نحن لسنا قتلة أو لصوصا أو قطاع طرق ولسنا بالخارجين عن القانون ، نحن مجاهدون أصحاب قضية وقضيتنا هي تحرير هذه الأرض من الإستعمار الكافر ، أما زوجك ورفقاؤه الخونة فسوف يحاكمون محاكمة عادلة وينالون جزاءهم الذي يستحقونه .

كانت المهمة ناجحة ، تم تجميع الخونة في المكان المحدد وهم مقيدون ، وفي عتمة الليل انسحب المجاهدون إلى مركز القيادة ، وبعد أيام تم تشكيل محكمة مختصة لمحاكمة الخونة التي نطق حكمها بالإعدام وقام عمي العربي ورفقاؤه بتنفيذه على الفور .

(10)

مازالت خالتي سعدية لم تفهم بعد المغزى من الإجتماع العائلي الطارئ الذي دعت إليه أمي بالبيت في ليلة الخميس ، كما أنها أرسلت أيضا في طلب الشيخ عبد الوهاب ، وإن لم يكن فردا من أفراد العائلة إلا أن علاقته بجدي و مكانته الروحية والاجتماعية بالقرية جعلت منه أبا للجميع ومرجعا يعود إليه أهل القرية كلما واجهتهم مشكلة أو حل بهم طارئ ، إلا أن خالتي سعدية كانت تتميز بغريزة ثاقبة جعلتها تتوجس و تترقب و بدت عليها مظاهر القلق والإرتباك وراحت تتساءل في نفسها :

_ ماذا تريد المقدمة عربية أن تبلّغ العائلة في هذا الإجتماع ، ولماذا ألّحت على حضور الشيخ عبد الوهاب لا بدّ أن الأمر مهم و خطير ، بركاتك يا سيدي عبد القادر الجيلالي .

و لم يكن ذلك الإجتماع في حقيقة الأمر إلّا وصية من أمّي بفلذة كبدها عبد القادر ابن الشهيد المرحوم الذي هو أنا ، كانت أمي صائمة في ذلك اليوم ، صامتة ساكنة كعادتها ، متثاقلة الخطى ووجهها مشرق متلألئ رغم زرقته ممّا أضفى عليه هيبة خاصة و ألغازا و أسرارا زادت من احترام الناس لها و محبتهم و إيمانهم بمنزلتها الروحية ، كما كان يقول أهل القرية و القرى المجاورة و قدرتها في التحدث مع أولياء الله الصالحين ، و بعد أن حضر الجميع و كانوا قبل أن تدخل أمي عليهم

يسألون الشيخ عبد الوهاب عن الثورة و المجاهدين و هو يسرد عليهم بطولاتهم في الجبال و الغابات و المدن و الأرياف و المعارك الكبيرة التي خاضوها بصدور عارية ، و إمكانيات قليلة كبدت الإستعمار خسائر جسيمة ، فيسأله أحد الحاضرين و هو خالي :

_ هل صحيح يا شيخ عبد الوهاب أن سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء يبرد الرصاص على المجاهدين ، و أنه يقاتل معهم في المعركة و يقود جيشا من أولياء الله الصالحين ؟

يبتسم الشيخ عبد الوهاب و قلبه مؤمن بهذه الفكرة متيقنا علم اليقين و عين اليقين من صدقيتها و يجيب خالي مازحا :

_ إسأل أختك المقدمة عربية ، فهي خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي و أولياء الله الصالحين ، و هي أعرف مني بهذا الموضوع ، فلا يفتي أحد في هذا الأمر بحضور المقدمة عربية .

و يسأله آخر :

_ هل صحيح يا شيخ عبد الوهاب أن سيدي عبد القادر الجيلالي يطلع المقدمة عربية على أمور الغيب و المستقبل ، و هل سيتحقق الإستقلال و متى ؟

فيجيبه الشيخ عبد الوهاب في ثبات و نبرة حادة و ثقة فيها حماس و إيمان :

_ هل ترى يا بني الشمس تطلع كل يوم من المشرق ، كذلك الإستقلال سوف يتحقق لا محالة ، و سوف ينجلي الظلام ، و لكن متى ، فهذا أمره عند الله و لكني أعرف شيئا واحدا قاله سي قابيل و هو " من أجل أن تحيا الجزائر فلابد أن يموت أغلى الرجال .

و بمجرد أن أنهى الشيخ عبد الوهاب عبارته الأخيرة، حتى دخلت أمي عليهم وهي تتثاقل في خطواتها ، و تلقي النظرة ثم الأخرى على الحاضرين ، ربما تتفقد من تخلف منهم و من شدة التأثر و الإنفعال و بطريقة لا شعورية ، قام الجميع من أماكنهم بما فيهم الشيخ عبد الوهاب لتحية هذه المرأة المباركة و ظهر الحياء على وجه أمي فطلبت منهم الجلوس و إلتزام أماكنهم ، أخذت مجلسا لها بجوار الشيخ عبد الوهاب و بعد فترة قصيرة بدأت أمي حديثها و الكل ينصت في شوق و خشوع و ترقب .

_ لقد جمعتكم اليوم لأمرين ، أمر يهمني و يهم العائلة ، و أمر يهمنا جميعا و يهم أهل القرية ، و هذه وصيتي لكم أريدكم أن تحفظوها في الدنيا و الآخرة و لقد دعوت الشيخ عبد الوهاب حتى يكون شاهدا على هذه الوصية ، تعرفون أن عبد القادر ابني هو يتيم و هو وحيد أبيه الشهيد رحمة الله عليه ، فأنا أوصيكم به خيرا .

فيقاطعها خالي متوجسا و مضطربا .

_ يكبر في حياتك و عزك يا أختي .

فتجيبه أمي بإبتسامة حزينة :

_ الأعمار بيد الله يا أخي .

ثم تواصل حديثها .

_ لقد كلفت أختي سعدية بتربيته و الإعتناء به حتى يبلغ أشده ، أما أنتم فأريد منكم أن تكونوا له آباء و أمهات و أعماما و أخوالا ، لا أريده أن يشعر بالوحدة أو اليتم ، لقد زارني أبوه البارحة في المنام و رأيت نفسي إلى جواره و تحدثت إليه و كان قلقا على إبنه عبد القادر ، و هو الذي طلب مني أن أعقد هذا الإجتماع لكي يطمئن عليه من بعده و من بعدي .

غلبت الحيرة و الذهول على الحاضرين ، و تأثروا أيما تأثر بكلام المقدمة عربية و اعتبروه وصية وداع ، كيف لا ، و منامات المقدمة عربية رُؤيا صادقة تتحقق دائما و راحوا يتخيلون حياتهم و حياة القرية في غياب هذه المرأة الصالحة ، إذ بفضلها أصبحت قريتهم معروفة عند العام و الخاص و يقصدها الناس من كل مكان للتبرك بمقام سيدي عبد القادر الجيلالي و دعوات أمي التي كانوا يعتبرونها دعوات قدسية

مستجابة إن عاجلا أو آجلا ، و بعد أن بلغ التأثر مداه ، أجهش الجميع بالبكاء و كانت خالتي سعدية أكثر الناس تأثرا ، تبكي و الدموع تنهمر على خديها ، تمسحهم تارة و تتركهم تارة أخرى و هي منهمكة في إعداد أطباق الكسكسي و أباريق القهوة للحاضرين ، و بعد فترة ليست بالقصيرة و لا بالطويلة ، إستجمع الشيخ عبد الوهاب قواه و رباطة جأشه و خاطب الحاضرين :

_ يا إخوتي ، كونوا رجالا ، و لا داعي لهذا البكاء و العويل ، لقد رأت المقدمة عربية مناما و من حقها أن تخاف على إبنها و توصينا به خيرا ، فهذا من حقها علينا وواجبنا نحوها ، هذا لقاء مبارك ، فلا تحولوه إلى جنازة و مأتم .

و راح جاهدا يصطنع إبتسامة لكي يخفف على الحاضرين و يعيد الإطمئنان إلى قلوبهم و البهجة من جديد إلى المجلس و يداعب الحاضرين بقصص مضحكة ، ثم حوّل كلامه إلى أمي في تُؤدة و حنان و رجاء.

_ لقد أخفتنا و أفزعتنا جميعا يا خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي ، قولي شيئا لأفراد أسرتك ، يا ناس المقدمة عربية مازالت حية بيننا .

و لكن الشيخ عبد الوهاب كان يعلم في قرارة نفسه أن أيام المقدمة عربية معدودات ، و أن منامها نافذ بحكم الأسرار الروحانية التي

يعرفها الشيخ عبد الوهاب دون أهل القرية جميعا بعد وفاة جدي رحمه الله ، ثم توجهت الأنظار إلى أمي و هي صامتة ، و فجأة تحرك مسبحتها نحو السماء و تخاطب الحاضرين :

_ سبحانه ، الله أكبر الذي خلق الموت و الحياة ، سبحانه الذي يعز من يشاء و يذل من يشاء ، سبحانه من وعد عباده المخلصين الصابرين بالنصر المبين .

تصمت قليلا ثم تواصل و نظراتها في السماء :

_ إن الثورة يا إخوتي على مشارف نهايتها ، سوف تنال الجزائر إستقلالها و يعود الفرنسيس إلى بلادهم أذلاء خائبين .

فيهتف الجميع :

_ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر .

و راحوا يتعانقون و يهنئون بعضهم البعض ، و بعد برهة من الصمت و التأمل راحت تقول في صيغة المحذر من الخطر الداهم .

_ إحذروا يأجوج و مأجوج .

فيجيبها خالي في دهشة و استغراب :

_ و لكن يأجوج و مأجوج قد أعدمته الثورة منذ سنوات.

_ سوف يخرج في زمان قادم يأجوج و مأجوج ، أخطر من الخائن الذي أعدمته الثورة ، سوف يخرج من ملحكم و طعامكم و بيوتكم و مساجدكم فاحذروه .

و عندها أدرك الشيخ عبد الوهاب أن المقدمة عربية تخاطب الحاضرين على موجة أخرى لا يفهمونها ، هي موجة الغيب و المستقبل ، و أراد أن ينهي حيرتهم و استغرابهم فقال في عزم و إصرار :

_ سنتصدى لياجوج و مأجوج اليوم و غدا ، أما أنتم فعليكم أن تعوا هذه الوصية جيدا و توصوا بها أبناءكم و أحفادكم ، فلا ندري ماذا يخبئ لنا القدر في الأيام القادمة .

_ كلنا آذان صاغية يا شيخنا الجليل ، إن وصية المقدمة عربية سيف على رقابنا جميعا أجابه ابن خالة أمي .

و بعد لحظات ، تفتح خالتي سعدية الباب و يطلب خالي من الجميع أن يتحلقوا ثلاثة ثلاثة حول المائدة لتناول الكسكسي و فناجين القهوة المعطرة بنكهة القرفة، بينما كانت أمي المقدمة عربية ممسكة بمسبحتها و هي تنظر إلى السماء .

(11)

تفاجأت خالتي سعدية من دعوة أمي لمرافقتها لزيارة مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، و كان يوم إثنين ، جالت خواطر و أفكار في رأس خالتي إلا أنها كبتتها و لم تفصح عنها و استسلمت مطيعة لأمر أمي التي كانت صامتة كعادتها في ذلك اليوم ، إلا أنها لاحظت شيئا مهما لم تلاحظه من قبل و هو أن أمي في طريقها كانت تركز بنظرها على الأماكن و الطرقات التي كانت تعبرها ، كما كانت أيضا تطيل الحديث و النظرات إلى النساء و الشباب الذين كانت تلتقيهم من أهل القرية ، و كانت تسألهم عن أمهاتهم و آبائهم و أجدادهم و أبنائهم حتى التفاصيل الصغيرة منها ، ووجد البعض في ذلك فرصة للإنفراد بأمي طويلا و الفوز بدعواتها و بركاتها ، إستغرق السير وقتا طويلا هذه المرة حتى بلوغ قمة الجبل و الوصول إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، صلت أمي ركعتين ثم أخذت لها مكانا في زاوية المقام وأخرجت مسبحتها تتمتم بكلمات لم تستطع خالتي السعدية أن تميزها أو تفهمها ، إستغرقت أمي طويلا هذه المرة في تأملاتها وخالتي سعدية تخرج تارة إلى فناء المقام وتدخل تارة أخرى وتتجاذب أطراف الحديث مع الزوار وتطلب منهم عدم إزعاج المقدمة عربية لمعرفتهم السابقة أن أختها في حالة صيام ، وفي غمرة الحديث النسوي تتوالى الطلبات على خالتي سعدية ، إذ تطلب منها عجوز في رجاء

_ لقد جاءني البارحة سيدي عبد القادر الجيلالي في المنام وطلب مني أن أغرس شجرة زيتون وأسقيها بماء زمزم لثلاثة أيام ، فأريد من المقدمة عربية أن تفسر لي هذا المنام.

وتقاطعها امرأة أخرى متوسطة في العمر.

_ لقد وضعت إبنتي الكبرى البارحة مولودا ولم نسمه بعد ، فنحن نريد أن نأخذ الإذن من المقدمة عربية وتتفضل علينا بإعطائه الإسم الذي يكون له بركة وهداية من الله ومن أوليائه الصالحين.

تهز خالتي سعدية رأسها إشارة بالموافقة، على أن تنقل طلباتهم إلى المقدمة عربية فيفرح الجميع بذلك ، وحينها تتشجع شابة في مقتبل العمر وتتجرأ وتتمسك بكساء خالتي وهي تبكي وتذرف الدموع ثم أخفضت عينيها في توسل ورجاء وراحت تشكو حالها إلى خالتي سعدية .

_ أيتها الخالة سعدية ، أنا أم الخير بنت الحاجة عائشة ، وكما تعرفين أنا في سن العشرين ولقد تزوج كل بنات عمي رغم صغرهن وبقيت وحدي في الدوار عزباء ، أطلب منك أن تكلمي المقدمة عربية لتدعو لي كي يفك الله كربتي ، وأتخلص من هذا العذاب وهذه النظرات التي تقتلني عندما يأتي بنات عمي إلى الدوار وهن يحملن أطفالهن وتفتخر

أمهم بذلك ، بينما أمي تزداد حسرة وقنوطا ، أرجوك ياخالتي سعدية في جاه سيدي ربي وجاه سيدي عبد القادر الجيلالي.

تربت خالتي سعدية على كتفيها وتنظر إليها نظرة إشفاق وحنو وتعدها.

_ سأفعل إن شاء الله.

غادر الزوار مقام سيدي عبد القادر الجيلالي وفناءه بعد أن قاموا بتنظيفه من بقايا الطعام التي خلفها الأطفال وراءهم وهم يلعبون ، صلت المقدمة عربية صلاة العصر ثم طلبت من خالتي الرجوع إلى البيت ، وفي الطريق لم تنطق بكلمة واحدة ولم تنبس ببنت شفة ، وكم حاولت خالتي سعدية أن تخرجها من عزلتها ومن صومها عن الكلام إلا أن كل محاولاتها باءت بالفشل ولم تظفر إلا بإيماءة واحدة من أمي تطلب منها مواصلة السير ، شعرت خالتي سعدية بالحزن لأنها لا تعرف لغة أولياء الله الصالحين ، وتمنت لو أن المقدمة عربية تتفضل عليها وتعلمها السر لكي تستطيع أن تخاطب عالم الأرواح و تتحرر من عالم الأشباح ، أسرعت خالتي سعدية إلى المنزل و دخلت أمي وراءها و سبقتها لكي تحضر لها فطور الصيام ، أغلقت أمي باب حجرتها ، صلت صلاة المغرب وتناولت ثلاث تمرات مع كأس من الحليب ، أخرجت مسبحتها وطلبت من خالتي سعدية أن لا يدخل عليها أحد إلا إذا طلبت هي ذلك.

إنشغلت خالتي سعدية بشؤون البيت وتحضير وجبة العشاء ، وبعد أن خلد الجميع إلى النوم شعرت خالتي سعدية بإحساس غريب وقلق متزايد على المقدمة عربية وبقيت مترددة بعض الوقت ، هل تدخل غرفتها بغير إذن أم تبقى محترقة حبيسة لهلوساتها وكوابيسها ، وكيف تتخلص من هذا القلق الذي انتابها منذ الصباح ، وفي الأخير اهتدت إلى مبرر معقول وهو ضرورة أن تدخل الغرفة لأخذ أواني الفطور وغسلها ومن ثمة الاطمئنان على أختها ، وعندما دفعت الباب برفق ، وجدت المقدمة عربية على فراشها مستقبلة القبلة ممسكة بمسبحتها ونظراتها معلقة بسقف المنزل ووجهها أبيض تسكنه ابتسامة عميقة تجلت في تفاصيله ، أرادت خالتي أن تصرخ لكنها تمالكت نفسها وبدأت دموعها تنسكب وراحت تمسك بيدي أختها وتبكي .

ـ من لي بعدك في هذه الدنيا يا أختي ؟

وماهي إلا لحظات حتى حضر الشيخ عبد الوهاب لم نعرف من أخبره ، لعلها لغة الأرواح ، وجاء ليحضر ويشهد على اليوم الأخير للمقدمة عربية في هذه الدنيا الفانية ، تحلق أفراد العائلة والدموع والعبرات تخنقهم والشيخ عبد الوهاب يواسيهم ويدعوهم إلى تقبل أمر الله ، أشارت أمي إلى الشيخ عبد الوهاب أن يقترب منها ، فهمست في أذنيه كلاما لم يفهمه أحد ، ونفس الشيء فعلته مع خالتي سعدية التي

إنفجرت بالبكاء، وبعد لحظات إستجمعت أمي قواها الباقية ممسكة بمسبحتها ورافعة سبابتها إلى السماء وراحت تردد الشهادتين .

ـ إستعنت بلا إله إلا الله، سبحانه وتعالى الحي الذي لا يخشى الفوت، سبحانه من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم خفي صوتها ولسانها ملتصق بسقف حلقها.

وعندما كبرت وقرأت كتاب "الفتح الرباني" لسيدي عبد القادر الجيلالي "، وجدت أن هذا آخر ما قاله هذا الولي الصالح في آخر حياته وهو يلقى ربه ، وهنا تذكر بعض الروايات في القرية التي كانت تروي قصصا عن أمي أن سيدي عبد القادر الجيلالي هو الذي لقنها الشهادتين وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ولم يره أحد من الحاضرين إلا الشيخ عبد الوهاب الذي كان مؤهلا لذلك، ولقد كانت همسات أمي له بأن لا يخبر بذالك أحدا ، أما همساتها لخالتي فكانت توصيها بي وأن تحفظ لها مسبحتها على أن تعطيها لي في الوقت المحدد ، وروت لي خالتي سعدية أن جنازة أمي كانت جنازة مهيبة حضرها الجميع من كل مكان، وصلى عليها الشيخ عبد الوهاب في جمع غفير من المصلين، ثم أخذوا جثمانها إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي كآخر زيارة لها بعد موتها قبل أن توارى الثرى إلى جانب قبر جدي وعمي، ولقد انتدب جيش التحرير الوطني سي قابيل لتقديم العزاء، وجاء مرفوقا بكتيبة بكاملها إكراما لأمي وللعائلة المجاهدة والشهيدة .

(12)

بعد الإستقلال مباشرة ، حرصت خالتي سعدية على إدخالي إلى المدرسة تنفيذا لوصية أمي رحمها الله ، و تمّ فتحها و تدشينها في يوم مميز بحضور أعيان القرية و سكانها و أعيان القرى المجاورة و السلطات المحلية المكونة أساسا من المجاهدين .

لقد كان يوما مميزا بالفعل ، مدرسة جزائرية حرة يرفرف داخل ساحتها العلم الوطني ، بكل ما يحمله هذا العلم من معنى و رمزية بالنسبة لجيل كامل عانى من البؤس و الشقاء و الألم ، و قدم تضحيات جسام من أجل هذه اللحظة التاريخية المصيرية التي شعر بها الجميع ، إنها ولادة جديدة بالنسبة إليهم و شعور عظيم حقا و إستثنائي و أنت تعيش حرا على أرض الواقع و مستقبلك بيدك لا بيد الآخرين ، مستقلا بشخصيتك التي تريدها أنت و التي حاول الإستعمار الفرنسي طمسها و سلبها منك ، و كم كانت فرحتي كبيرة عندما أجمع أهل القرية على تسمية هذه المدرسة باسم الشهيد محمد و هو أبي رحمه الله ، حيث إنتابني شعور طفولي في تلك اللحظة بأن هذه المدرسة هي مدرستي و مدرسة أبي و أهلي و أني سأحافظ عليها و أدافع عنها كما دافع أبي و عمي و جدي عن هذا الوطن و ضحوا من أجله.

كان عرسا كبيرا و إحتفالا رائعا و قريتنا تستقبل هذا الحدث الكبير، فقد إختارت السلطات قريتنا دون غيرها لاحتضان هذه

المدرسة تكريما لشهدائها ، لأنها القرية التي قدمت عددا كبيرا من الشهداء و أراد الشيخ عبد الوهاب شيخ القرية و ما يتمتع به من مهابة و احترام أن يخلد هذه الذكرى ، فطلب من الجميع أن يعدوا وليمة كبيرة إحتفاء بهذا الحدث ، فجمع الأعيان حوله و أوكل لكل واحد منهم المهمة المنوطة به .

_ كما تعرفون ، لقد أرادت سلطات بلادنا أن تكرم قريتنا باحتضان هذه المدرسة ، و سوف يحضر ضيوف و أنتم أهل الكرم الجود و الواجب ، فلا بد أن نخلد هذا اليوم بطريقتنا المعهودة حتى يبقى عالقا في أذهان كل من يحضر و كل من يسمع به .

و في اليوم المتفق عليه ، تداعى الأهالي من كل مكان و هم يحملون قصاع الكسكسي فوق رؤوسهم و يتبعهم أبناؤهم بأواني المرق و اللبن و العسل و رائحة القهوة تتطاير في كل مكان وهي ممزوجة بنسيم الصباح العليل ، كما أن فرسان القرية قد أخذوا إستعدادهم في صفوف منتظمة و هم يحرقون البارود فوق رؤوس الجميع و النسوة يزغردن و الأطفال يضحكون من شدة الفرح و يتحركون في كل مكان ، و كان كل طفل منهم يشير إلى أبيه الفارس ليتفاخر به أمام أقرانه من حيث اللباس و هيئة الفرس و سرعته في الميدان ، و من بين الأحداث الطفولية التي مازالت محفورة بذاكرتي و أنا طفل صغير أن أحد الفرسان قد خانه الحظ فسقط عن فرسه في الميدان ، فكان إبنه محل سخرية من أطفال

أهل القرية حتى أنه تخلف عن المدرسة و لم يلتحق بها إلا بعد جهد جهيد و محاولات متكررة من طرف عائلته و تدخل مباشر من طرف معلم المدرسة عمي المهدي الذي كان يخاطبنا دائما قبل بدء الدرس .

_ أبنائي الأعزاء ، لا بد أن تعرفوا أن لكل فارس هفوة و لكل جواد كبوة و هذه عادة الفرسان ، و لكن يبقى في النهاية الفارس فارسا .

و كان أطفال المدرسة يتغامزون و يحدثون أصواتاً خفيفة عندما يسمعون هذه العبارة ، و كان ابن الفارس المعني يزداد وجهه إحمراراً من شدة الحياء و التأثر و الخجل ، و لكن ما هي إلا أيام معدودات حتى نسي الجميع هذه الحادثة و بدأت مرحلة الجد و التحصيل الدراسي ، و كان عمي المهدي يفاخر بنا و يزيد من معنوياتنا و يحملنا مسؤولية كبيرة و نحن أطفال .

_ أنتم يا أبنائي من سوف تبنون هذا الوطن و تحافظون عليه ، لقد إنتهينا من عملية التحرير و اليوم نخوض معركة البناء ، لقد مات أغلى الرجال و النساء من أجلكم فلا يجب أن تنسوا ذلك .

كان عمي المهدي مجاهدا و يعرف أهل القرية جيدا ، كما كان يعرف مقام أمي المقدمة عربية رحمها الله ، حتى أني رأيته في الكثير من المرات واقفا أمام قبرها يقرأ القرآن ، و أحياناً يبكي و هو يتمتم و تخنقه العبرات.

لقد كان الإحتفال ناجحا من كل النواحي وفق الخطة التي أعدها الشيخ عبد الوهاب و أعيان القرية ، و بعد أن أكل الجميع هنيئاً مريئاً طلبت السلطات من الشيخ عبد الوهاب أن يقول كلمة بالمناسبة ، فأحس الشيخ بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، و راح يلملم جراحه و هو مثخن بالذكريات و تعتصره الآلام، تقدم في حضرة الجميع ووجه نظراته إلى السماء و ساد صمت رهيب راح يخيم على المكان .

_ أيها الإخوة ، إني لا أجد الكلمات و نحن نعيش هذه اللحظة العظيمة و هذه النعمة العظيمة ، نتذكر الشهداء الأبرار و الإخوة و الأحبة ، الذين ضحوا من أجل هذا الوطن و من أجل أن نعيش هذه اللحظة أحرارا أسيادا فوق أرضنا الطاهرة ، أرض آبائنا و أجدادنا ، إن هذه الأمة هي أمة العلم لأنه لا يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ، نفتتح هذه المدرسة اليوم فنتذكر الشهيد محمد و هو في ريعان شبابه و كل الشهداء ، و زوجته المقدمة عربية التي بشرتنا بهذا اليوم الموعود .

فيرد عليه الجميع بصوت واحد:

ـ الله يرحم الشهداء، الله يرحم المقدمة عربية .

يبكي الشيخ عبد الوهاب وتبتل لحيته بدموعه وتهرب منه الكلمات فتسعفه حكمته وخبرته ويتذكر وصية المقدمة عربية وهي تسلم روحها لبارئها .

ـ إحذروا يأجوج ومأجوج .

فتزداد مخاوفه وهواجسه فيؤكد للجميع بنبرة حادة :

ـ إن هذه النعمة ، نعمة الاستقلال ، لا بد أن نحافظ عليها ولا ننس رسالة الشهداء ، لقد قال سي قابيل رحمه الله :

ـ من أجل أن تحيا الجرائر فلا بد أن يموت أغلى الرجال .

واليوم أقول لكم ، إحفظوا هذه الوصية جيدا واحذروا غدر الزمان وتقلبات الأيام والسنين أن تنسيكم تاريخكم ،و ما كنتم عليه وما أنتم عليه اليوم اللّٰهُمَّ إني قد بلغت، اللّٰهُمَّ فاشهد.

وبعد أن غادر الجميع المكان بقيت وحيدا في ساحة المدرسة ، أراقب العلم وهو يرفرف عاليا بلونه الأخضر والأحمر والأبيض ، لقد رأيت فيه وجه أمي وأبي وجدي وعمي وكل الشهداء الذين حدثتني عنهم خالتي سعدية ، وبعد فترة طويلة من الزمن تفقدتني خالتي في المنزل فلم تجدني ، سألت عني عند الجيران وفي المكان الذي إعتدت أن ألعب فيه مع أقراني فلم تسعفها أسئلتها بجواب ، لكنها بعد تفكير قصير استطاعت بفطرتها النقية أن تحدد مكاني ، وماهي إلا لحظات حتى وجدتها جاثمة أمام رأسي ، لم تقل لي شيئا ، إستغرقت هي الأخرى في تأمل العلم ومر بذاكرتها شريط سريع مليئ بالأحداث الماضية والمعاناة والتضحيات

وزمن الكفاح المسلح وأسماء الشهداء وعائلاتهم واليتامى والأرامل ، ثم راحت تمسح على رأسي و تواسيني في خلوتي .

_ عليك أن ترفع رأسك عاليا يا سي عبد القادر، هذه مدرسة أبيك محمد و مدرسة جميع الشهداء ، هذا هو اليوم الذي أراده أبوك وأنت اليوم تقطف ثماره ، الله يرحم الشهداء .

ثم أردفت وأرادت أن تذكرني :

_ غدا يا حبيبي يوم الجمعة ، علينا أن نستعد جيدا ، علينا أن نصعد إلى الجبل نزور مقام سيدي عبد القادر الجيلالي وقبر المقدمة عربية ، لقد علمت أن عددا كبيرا من سكان القرية ومن القرى المجاورة يريدون التوجه إلى قبرها لأخذ البركة لأنهم يعتقدون أنه من لا يزور قبر المقدمة عربية فلن يقبل سيدي عبد القادر الجيلالي طلباته ولن يلبي له حاجاته .

وحينها شعرت بالغبطة والسرور وأحسست أني خفيف جدا مثل الريشة لدرجة أني أستطيع الطيران ، إحتضنت خالتي بقوة و عدنا إلى البيت والليل يرخي سدوله على قريتنا الهادئة .

(13)

في صباح باكر معطر بحبات الندى ، أيقظتني خالتي سعدية وهي كلها نشاط وحيوية وكأنها تشهد المعركة في ساحة حرب ، وكان هذا دأبها وديدنها عندما تستعد لفعل شيء ترى فيه أهمية قصوى

_ إستيقظ يا عبد القادر ، فلا أريد أن يسبقنا الزوار إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي .

وكانت خالتي سعدية قد أعدت عدتها وضبطت رزنامة هذه الزيارة الميمونة ، كيس مملوء بخبز المطلوع و آخر من التمر لتوزيعه على الزوار وخاصة الأطفال الذين ألفوا هذا النوع من الزيارة للتمتع بما تجود به عليهم خالتي سعدية في هذا اليوم المبارك .

شربت قهوتي مسرعا وارتديت ملابسي ، صليت صلاة الفجر وقرأت سورة يس والواقعة لأن الأولى تحفظ لإنسان وتبعد عنه السوء والثانية تجلب الرزق وتبعد الفقر ، هكذا علمتني خالتي سعدية التي تعودت وعودتنا معها على قراءة هاتين السورتين بعد صلاة الفجر حتى يكون يوم الإنسان سعيدا ومباركا .

ساعدت خالتي سعدية على حمل مؤونتها ورحنا نتسلق الجبل لبلوغ مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، كانت الطريق مزدحمة بالزوار وكانوا يفسحونها أمامنا عندما يتعرفون على هويتنا

_ هذا عبد القادر ابن المقدمة عربية وهذه أختها الحاجة سعدية .

لقد سمعت هذه العبارة أكثر من مرة وأنا أتسلق الجبل ، كما كنت أسمع في مجالس الرجال والنساء عن كرامات المقدمة عربية ، ولكني لم أكن أدرك قيمة هذا الكلام ، ونحن في الطريق سألت خالتي سعدية

_ لماذا يفسح لنا الزوار الطريق ولماذا يعرفوننا ونحن لا نعرفهم ؟

فتجيبني خالتي السعدية مبتسمة :

_إنهم يعرفون أمك المقدمة عربية يا بني، ولولا أمك وذكراها الطيبة لما تعرف علينا أحد .

_ولكن لماذا يسمون أمي بالمقدمة ...؟

_ لأنها خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء ، كان يأتيها ويحدثها كما أنها كانت تراه و تتحدث إليه.

نسيت أن أذكر أن الطريق إلى مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ضيقة ، وكان الزوار يمثلون سلسلة متصلة غير منتهية وهم يتسلقون هذا الجبل الذي يختزن تاريخهم وأسرارهم وكرامات أوليائهم ، وكانوا يشعرون بفرح و سرور لأنهم سوف يحملون همومهم وأحزانهم التي تثقل حياتهم ويودعونها لمن يعتقدون أنه له القدرة في مساعدتهم ، لذلك كانوا

يشعرون بالخفة وهم ينزلون الجبل ، تاركين أمانيهم وراءهم على أمل أن تتحقق في يوم ما .

كان مقام سيدي عبد القادر الجيلالي مزدحما بالزوار، ولكن بمجرد أن دخلنا أنا وخالتي سعدية حتى ساد الصمت وسكن الجميع حتى لأطفال لم تسمع لهم حديثا أو ضوضاء ، أقبل النسوة على خالتي سعدية يسلمون عليها ، يقبلنها ويقبلنني ، وبعد أن ردت عليهم واجب السلام والتحية أشعلت الشموع في الزوايا و أحرقت البخور وأخرجت قارورة عطر رشتها على المكان ، ثم استقبلت القبلة وراحت تصلي وأنا معها ثم تبعها النسوة وحتى لأطفال اصطفوا مع أمهاتهم في سكينة ووقار لأداء الصلاة وبعد دعاء طويل من خالتي سعدية والنسوة يؤّمِنون أخرجت الخبز والتمر وراحت توزعه بالتساوي على الحاضرين لا فرق بين كبير وصغير , ثم إزدحم المكان بالزوار وكانت رغبة كل واحد أن يحظى بحصة لأنها تحمل في نظرهم البركة وبقية مما تركت المقدمة عربية من كرامات ، وكان الزوار في منتهى الأدب ، فحتى الذين لم يسعفهم الحظ في أخذ الحصة المباركة إكتفوا بالتسليم على خالتي سعدية ، كما أمطروني بنقود كثيرة رفضت في البداية أخذها أو قبولها ولكن خالتي سعدية أشارت حتى لا أكسر خواطرهم ولا أفسد نياتهم .

_هذا القمر ابن المقدمة عربية ، الولية الصالحة وخادمة سيدي عبد القادر الجيلالي ، يا له من يوم ، يا لها من سعادة ، رضاك يا لله ، يا رسول الله يا سيدي عبد القادر الجيلالي .

قالت إمرأة عجوز ثم طبعت على جبيني قبلة حارة ووضعت قطعا من النقود في كيس الخبز .

وتجيبها إمرأة أخرى :

_ أنظري إلى عينيه ، إنها تشبه عيني أمه المقدمة عربية ، الله يعطينا بركاتها بجاه هذا اليوم .

وتتدافع النسوة لتقبيلي وامتلأ كيس الخبز و التمر بالنقود وأنا في حيرة من أمري لا أدري شيئا مما يحدث حولي ، وعندئذ تدخلت خالتي سعدية :

_أشكركم أخواتي على حبكم وعطفكم، وأسال الله أن يتقبل زيارتكم وأن يقضي حوائجكم و أن يرفع عنكم البلايا و المصائب و أن لا يردكم اليوم خائبين وكل يوم آخر تقصدون فيه هذا المكان المبارك.

فيرد عليها النسوة بصوت جهوري تكاد تسمع صداه من قمة الجبل.

_ آمين، يا رب العالمين .

ثم تطلب منهم خالتي سعدية في أدب أن يغادروا المقام :

_ كما تعرفون اليوم زوار كثيرون ، وكل واحد يريد أن يأخذ البركة ، فعلى الزائر أن لا يبقى في المقام كثيرا ولا بد أن نخليه لغيرنا من الزوار حتى يتقبل الله منا ومنكم .

فكان طلب خالتي سعدية بمثابة السيف على الرقاب، فانصرفوا في هدوء تاركين المكان لغيرهم واستطاع جميع الزوار أن يدخلوا إلى المقام في نظام و هدوء كأنهم جيش منظم يتلقون الأوامر فينفذونها بحذافيرها وبدون نقاش .

كان قبر أمي المقدمة عربية غير بعيد عن مقام سيدي عبد القادر الجيلالي ، ولكن كم كانت حيرة ودهشة خالتي سعدية وهي ترى الزوار وهم يحتفنون التراب من قبر والدتي بغاية التبرك والشفاء حتى كاد أن يستوي القبر بالأرض ، لم تقل خالتي شيئا ولم تلم الزوار على فعلتهم ، فهم مخطئون من حيث عملهم ، ولكن نيتهم شريفة وصادقة لأنهم يحملون في قلوبهم حبا عظيما لوالدتي وهي التي عايشتهم وآزرتهم في محنهم وشدائدهم وتحققت على يديها طلباتهم وأمنياتهم .

وقبل الزوال، عدنا أدراجنا أنا وخالتي سعدية وفي الطريق أفصحت لي عن أمر مهم كانت تفكر فيه .

_ إسمع يا عبد القادر اسمع يا ابن الغالية ، لقد رأيت اليوم كيف تهافت الزوار على قبر أمك يأخذون ترابه حتى إستوى بالأرض وأنا أخشى أن يقوموا بنبشه غدا ، طبعا هم معذورون لأنهم يطلبون البركة ، ولكن القبر يبقى قبرا وللميت حرمته فما بالك بقبر المقدمة عربية ، ولذلك سوف أتحدث مع الشيخ عبد الوهاب الليلة لنقوم ببناء قبر والدتك وبناء مقام يليق بها وهكذا نقوم بحل هذه المشكلة .

لم أفهم شيئا مما قالته خالتي لأني رحت أفكر في أكياس النقود وماذا عساني أن أشتري بها فرحت أحلم وأحلم و أحلم.

_ فرس ، بندقية ، لباس فارس .

ولكن خالتي سعدية خيبت أملي ، لأنه في ذلك اليوم وقبل طلوع الفجر، وزعت تلك النقود على فقراء أهل القرية.

(14)

كان يوما ليس كسائر الأيام ، بينما كان عمي المهدي يعلمنا حروف الأبجدية ، دخل مدير المدرسة إلى قسمنا تتبعه إمرأة و طفل تبدو على وجهه ملامح الخجل ، مطأطأ الرأس باهت الوجه تتخلله بقع سوداء ، تحدث المدير قليلا إلى عمي المهدي و استظهر له مجموعة من الأوراق ، و فجأة لاحظنا أن الإضطراب قد تملك عمي المهدي و تغير لونه ثمّ إنفرد بالمدير و أسّر في أذنيه كلاما لم نسمعه و لم نعرف فحواه ، و حينئذ رأينا تلك المرأة تستعطف عمي المهدي و تتوسل إليه بأن يقبل إبنها تلميذا معنا في المدرسة ، و شيئا فشيئا بدأ الصوت يرتفع و استرقنا السمع .

_ ما ذنب الولد يا سيدي ، لقد نال أبوه عقابه و ذهب إلى الجحيم ، إنه طفل صغير ، إنه ملائكة يا سيدي .

و تضيف بنبرة متحسرة :

_ إنني لأرملة يا سيدي و رفضت الذهاب إلى فرنسا رغم الإغراءات ، أريد فقط أن أعيش و أموت في أرض آبائي و أجدادي .

تكمل هذه العبارة ثم تدخل في بكاء هستيري و عمي المهدي يتأملها و يتأمل هيئتها ، مستغرقا في الصمت كمن كان يدور بذاكرته شريط من الأحداث و الذكريات الماضية .

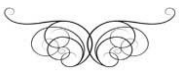

في الحقيقة لم يكن الطفل سوى الجيلالي ولد سليمان يأجوج و مأجوج ، الخائن الذي تسبب في إزهاق الأرواح من قريتنا و من القرى المجاورة ، و باع نفسه و ضميره للإستعمار الفرنسي ، كما غرّر بالكثيرين من أبناء قريته الذين باعوا بدورهم أنفسهم للإستعمار .

لقد كان هذا اليوم إستثنائيا في قريتنا و أحدث طوارئ كبيرة خاصة عندما عم الخبر و شاع بين سكان القرية و انتقل من مكان إلى مكان و من بيت إلى بيت ، و لا تكاد تسمع في الأماكن العامة إلا عبارة _ ابن يأجوج و مأجوج جاء ليدرس عندنا .

_ يا لطيف يا لطيف .

و سمعت امرأة تتحدث إلى زوجها من نافذة المنزل الذي يقابل منزلنا :

_ و لكن كيف لإبن يأجوج و مأجوج أن يدرس في مدرسة الشهيد محمد ، و كلنا يعرف أن يأجوج و مأجوج هو الذي قتل أباه و أخاه في مركز التعذيب .

و يجيبها زوجها بنبرة إستغراب و تأسف :

_ لا أعرف يا لالة لا أعرف .... الله يجيب الخير .

علقت هذه الكلمات و هذه الأخبار التاريخية بذاكرتي لأول مرة ، و عند عودتي إلى البيت و قبل كل شيئ فاتحت خالتي سعدية في الموضوع :

_ هل صحيح أن ابن يأجوج و مأجوج سوف يدرس في مدرسة أبي ، سمعت أن أباه قد قتل جدي و عمي في مركز التعذيب .

تنهض خالتي سعدية من غرابة الخبر و قسوته و ينتفض جسمها دفعة واحدة و تقبض على رأسي و تسألني و عيناها جاحظتان :

_ من قال لك ذلك و من أخبرك ؟

_ لقد رأيته اليوم بنفسي ، جاء رفقة أمه و مدير المدرسة ، و طلبوا من عمي المهدي أن يقبله تلميذا عنده ؟

_ و ماذا قال لهم عمك المهدي ، ماذا فعل ، قل ؟

_ لقد تردد أولا و رفض في البداية ، لكن مدير المدرسة استعرض له مجموعة من الأوراق و راحت أمه تبكي و تندب من أجل أن يقبل ولدها ، و في النهاية أخذ له مكانا في القسم ، لكن عمي المهدي لم ينظر إليه و لم يكلمه أبدا .

_ هكذا إذن ترد خالتي سعدية ، سوف أذهب إلى الشيخ عبد الوهاب و أعيان القرية للنظر في هذا الأمر الخطير .

لقد إعتبرت خالتي سعدية أن الأمر خطير و هو أمر أفزعني كثيرا ، فنحن لم ننتهي من فرحتنا بفتح المدرسة حتّى ألمّت بنا هذه المصيبة ، وهذه الكارثة غير المنتظرة .

اجتمع الناس فرادى و جماعات داخل بيت الشيخ عبد الوهاب و خارجه ، رجالا و نساء ، أطفالا و كهولا ، حتى الفضوليون تجمعوا أمام المنزل لمعرفة ما يحدث .

دخلت خالتي سعدية إلى البيت فوجدته ممتلئا عن آخره و راح الشيخ عبد الوهاب يرحب بها .

_ مرحبا بالحاجة سعدية ، رائحة الغالية المقدمة عربية ، الله يعطينا رضاها و بركاتها .

و عندما تفرست خالتي سعدية في الوجوه ، رأت عمي المهدي من بين الحضور ،أدركت أن الخبر صحيح و أنه لا بد من إتخاذ موقف حازم ، و ما كادت خالتي سعدية تأخذ مكانها بين الحاضرين حتى نهض كهل فقد ثلاثة إخوة من الشهداء :

_ إمّا أن يرحل ابن يأجوج و مأجوج ، و إما أن نغلق المدرسة و يبقى أبناؤنا في بيوتهم .

فترد عليه القاعة :

_ صدقت ، صدقت ، الله يرحم ذلك الفم .

و تتوالى ردود الفعل منفردة و مجتمعة و يعبر كل واحد عن رأيه فيما ظل الشيخ عبد الوهاب صامتا و عمي المهدي يراقبه و لم يقطع حديث القوم

الّا فناجين القهوة التي كانت توزع فوق رؤوسهم و حينها تكلم الشيخ عبد الوهاب .

_ إن هذا الأمر صعب عليكم بكل تأكيد ، كما أنه صعب عليّ و لكننا في النهاية مسلمون ، مؤمنون لقد انتصرت الثورة و إنتصر الحق على الظلم ، و نحن اليوم دولة يحكمها القانون ، الكل فيه سواسية ، كما أن كل إنسان مسؤول عن نفسه و عن أفعاله ، سنذهب غدا إلى السلطات و نعرض عليهم الأمر ، ربما يمكنهم تحويله إلى مدرسة أخرى و ننتهي من هذا المشكل .

و لكن رجاء الشيخ عبد الوهاب لم يتحقق ، بحجة أن المدرسة الوحيدة و القريبة لإبن يأجوج و مأجوج هي مدرستنا ، مدرسة أبي الشهيد محمد ، أما بالنسبة لموقفي من هذه القضية فتلك قصة أخرى .

(15)

باءت كل المحاولات بالفشل لإقناعي بالذهاب إلى المدرسة ، فأنا لن أدرس مع ابن يأجوج و مأجوج قاتل جدي وعمي وخائن الوطن، أليست المدرسة مدرسة أبي الشهيد محمد ، كنت أجيب خالتي عندما تلح علي في السؤال وتترجاني بالذهاب إلى المدرسة تنفيذا لوصية أمي رحمها الله التي كانت تحب العلم وتجل المتعلمين ، ولقد أحدث تغيبي عن المدرسة ضجة عند زملائي في الصف ، فقد قاطعوا بدورهم المدرسة في اليوم التالي خاصة أبناء الشهداء وفي مساء اليوم الثاني تغيب الجميع ولم يحضر إلا الجيلالي ابن يأجوج ومأجوج ، وهذا ما جعل عمي المهدي يتصل بخالتي سعدية والشيخ عبد الوهاب لأني إذا عدت إلى المدرسة فسوف يعود الجميع ، ولكني كنت مصمما على رأيي ، خاصة عندما أزور قبر جدي وعمي ، فكنت أشعر أن الاستجابة لطلبهم هي خيانة لا تقل عن خيانة يأجوج ومأجوج . وتسارعت الأحداث ، وانتقلت الأخبار في كل مكان عن مدرستنا ، وأصبحت زعيما للمقاطعين والمتمردين ، ووصلت أخباري إلى المجاهدين رفقاء أبي الشهيد رحمه الله وكان اهتمامهم كبيرا بهذه القضية.

_ إنه عبد القادر ابن الشهيد محمد والمقدمة عربية الولية الصالحة خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي.

هكذا كانت تنتقل الأخبار من مجلس إلى آخر ومن قرية إلى أخرى، وأصبحت مدرستنا مغلقة ساكنة حزينة بعدما كانت متألقة مفعمة بالحيوية والفرح، واحتار عمي المهدي في الأمر ومعه الشيخ عبد الوهاب الذين تجاوزتهم الأحداث ولقد ترددت زوجة يأجوج ومأجوج على بيتنا كثيرا ولكن دون جدوى من أجل التأثير على خالتي سعدية ، ولم يجد بكاؤها ولا استعطافها ، وكانت كل الطلبات و الإستجداءات التي تعرض علي مرفوضة وكنت أواجهها بجواب واحد كالصخرة .

لن أذهب إلى المدرسة .

وتطلب الأمر الإتصال بعمي العربي صديق أبي ورفيقه في الجهاد الذي لم يتردد لحظة في القدوم إلى قريتنا وطلب من خالتي سعدية أن يجتمع بي على إنفراد .

_ اسمع يا ابن الغالي ، لقد أوصاني أبوك الشهيد بك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لقد كان إسمك آخر ما نطق به ، ربما أنت صغير لا تعرف قيمة هذا جيدا ، ولكن أراد أبوك أن تكون رجلا ونحن كذلك ، فأنت أمانة في رقابنا كما عاهدنا أباك ، لذلك أريدك أن تذهب منذ الغد إلى المدرسة تنفيذا لوصية أبيك وأمك المقدمة عربية نفعنا الله ببركاتها .

لم أدري كيف أجيب عمي العربي الذي تجشم عناء السفر من مكان بعيد ليلتقي بي وأحسست بالخجل والإضطراب ، ولكني تشجعت بعد ذلك وقلت له.

_ لا أريد أن أدرس مع ابن يأجوج وماجوج.

وما كدت أنهي عبارتي حتى ابتسم ومسح على رأسي وراح يشرح لي طبيعة الأمر.

_أعلم ذلك يا بني ، ولكن الله غفور رحيم ، لقد أصبحنا اليوم دولة والمواطنون فيها سواسية ، قل لي لو كانت أمك المقدمة عربية حية هل كانت ستقبل بما قمت به أنت وزملاؤك ، بل لو كان أبوك الشهيد محمد على قيد الحياة ، فلا أعتقد أن يكون هذا موقفه.

_ولكنه ابن يأجوج وماجوج.

_ وما ذنبه يا بني؟

_ ذنبه أنه ابن حركي.

_ لقد قلتها يا عبد القادر ، ذنبه أنه ابن حركي وأنت ابن شهيد ، التاريخ لا يرحم يا بني ، وهذا هو الفرق بينك وبينه إلى يوم الدين.

لا أعرف كيف أقنعني عمي العربي بهذه العبارة التي أزاحت عني أثقالا كثيرة ، التاريخ لا يرحم ، إنزاحت عني الغمامة وأدركت أن الإنسان

يبقى خالدا بجوهره وأفعاله وذكراه الطيبة ، وحينها إبتسمت لأول مرة بعد عبوس طويل ، ودخلت علينا خالتي سعدية التي أعدت عشاء فاخرا يليق بمقام عمي العربي المجاهد الشجاع ، وحضر المأدبة الشيخ عبد الوهاب وعمي المهدي وأعيان القرية وبعض المسؤولين المحليين ، وهكذا انتهت الأزمة وشاع الخبر في القرية وتأهب الجميع للغد للرجوع إلى المدرسة من جديد .

(16)

عادت الأمور إلى سابق عهدها ، وفتحت المدرسة أبوابها من جديد بعد أسبوع من المقاطعة والتحق جميع التلاميذ بمقاعدهم الدراسية وانتهت الأزمة التي شهدتها قريتنا وتداولت قصتها الألسن و المجالس حتى وصلت إلى الآفاق وأحدثت جدلا واسعا ، ولكن بقي الشعور الخفي الذي لم أستطع أن أتخلص منه والذي كان يضغط علي باستمرار ، شعوري الذي لم يتغير اتجاه ذلك الشخص وعائلته ونظرتي وموقفي منه وصور الماضي التي تتزاحم في ذاكرتي وتركض فيها من مكان إلى مكان وتثير الهواجس في نفسي و النبوءات الحزينة ، و أعتقد جازما أنه كان يبادلني نفس الشعور ، لأنه كان يتحاشاني في كل مكان وفي كل مناسبة ، وكان في معظم الوقت يبقى وحيدا منفردا في ساحة المدرسة لا يكلمه أحد عندما أكون موجودا بينهم ، لم يكن زملائي يحسون بنفس الوجع والألم الذي كنت أحس به ، ربما لصغر سنهم ، وربما لأشياء أخرى مرتبطة بالحياة الجديدة وضرورة نسيان الأحقاد والآلام الماضية وفتح صفحة جديدة مع التاريخ لتبقى بذلك ذكرى يأجوج ومأجوج وجرائمه المرعبة من الماضي الذي يجب نسيانه إلى الأبد لكي تندمل الجراح وتجف الدموع من العيون والقلوب ، فكم من دموع غالية سكبت ، وكم من عيون بريئة صادقة ذرفت الدماء بدل الدموع ، ولكني عبثا حاولت وعبثا أحاول ، فأنا لا أستطيع أن أنسى ذكرى عائلتي التي هي جزء من تاريخ بلادي ، وحتى عندما أنام أحلم بأمي المقدمة عربية وهي تبتسم لي

وتمسح على شعري وبقربها أبي الشهيد في حلة بهية مشرق الوجه وأكاد أسمع صوته يناديني على شكل وصية أو تنبيه .

_ إسمع كلام خالتك سعدية يا عبد القادر.

وحينها أستيقظ مفزوعا ولكن في قرارة نفسي أكون سعيدا ، فتدخل خالتي سعدية إلى غرفتي ، كيف أحست بي لا أعرف وأحتضنها وأبكي ، وأقص عليها قصة الحلم ، فتبتسم وتهون علي وتدعوني بعد صلاة الفجر إلى شرب القهوة التي أعدتها باكرا كعادتها في كل يوم جديد مع آذان الفجر الأول وخبز المطلوع الذي تملأ رائحته البيت والتي لا تستطيع خالتي سعدية أن تستغني عنه .

لقد كنت الشغل الشاغل لخالتي سعدية في كل شيء ، كأنها كانت تحيا من أجلي ، كانت تعتبرني رسالتها الخالدة ، ربما رسالتها الوحيدة في الحياة ، وأن القدر قد إختارها لتتم مسيرة أمي المقدمة عربية ، لذلك رفضت جميع عروض الزواج التي تقدمت إليها عندما راحوا يتنافسون على خطبتها لتحقيق الشرف الكبير الذي كانوا ينتظرونه ، فأيهم سيحظى بخالتي سعدية أخت المقدمة عربية الولية الصالحة خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي ؟

وعندما كان النسوة يثرن معها هذا الموضوع لكي تحظى بالذرية الصالحة كانت تجيبهم بإبتسامة :

_ يكفيني عبد القادر ، تكفيني رائحة الغالية ، ، تكفيني رائحة الغالية ، إنه ابني الوحيد و أنا أمه الوحيدة بعد وفاة أمه .

كنت أعرف مكاني في قلبها و اهتمامها و تعلقها المفرط بي و حرصها على راحتي ، لذلك كنت لا أعصي لها أمرا و كانت قليلا ما تأمرني و تتغاضى عن الكثير من الحماقات الصبيانية ، و كنت أنفذ طلباتها و رغباتها على الفور ، و كنت في الكثير من الأحيان ينتابني شعور غريب ، ماذا لو غابت أو ماتت خالتي سعدية كيف سأعيش ؟ لذلك كنت أحمد الله و أشكره عندما كنت أنهض في الصباح و أجد خالتي سعدية حية ترزق ، لم تغب و لم تمت بعد .

كان الجيلالي المحروق أو المشوط كما كنا نلقبه ابن يأجوج و مأجوج قليل الكلام لا يتحدث إلا نادرا و يرمق الآخرين بنظرات غريبة ، و كان يتوجس خيفة من كل شخص يقترب منه ، و كان يبكي و يذرف الدموع و يلوذ بها لأنه كان يخشى المواجهة و لا يحسن إدارة الصراعات و المشاجرات التي كانت كثيرا ما تحدث في مدرستنا ، و سمي بالمحروق أو المشوط لأن وجهه تتخلله بقع سوداء ، و هو الإسم أو الوصف الذي لقب به و لازمه إلى غاية آخر فصل دراسي قضاه في مدرسة القرية .

كان هذا اللقب يغضبه و يستثيره كثيرا ، لكنه كان يكظم غيظه مكرها لا بطلا كما يقولون ، و كان هذا الإسم أهون عنده من أن يقال له ابن يأجوج و مأجوج ، كان يجر عاره وراءه ، و هذا مما جعل شخصيته

تتقلص كل يوم و تنكمش على نفسها حتى أصبح منفردا معزولا منبوذا من الجميع ، و كان المعلمون يتابعون و يلاحظون كل ذلك و سمعت أحدهم ذات يوم يقول لزميله الآخر :

_ ما ذنبه إذا كان أبوه حركيا و خائنا ؟

و لكن زميله الآخر لا يرد على سؤاله و لا يعلق عليه لا بالسلب و لا بالإيجاب ، ولكن أنا الذي استفزني هذا السؤال ، كنت أجيب عليه في سري .

_ و ما ذنبي أنا إذا كان أبي شهيدا و بطلا ؟

و ما ذنب عائلتي إذا كان يأجوج و مأجوج هو الذي تسبب في فنائها ؟

لم يكن الجيلالي المحروق يشعر بالراحة في مدرستنا فلقد كانت كابوسا و جحيما يوميا بالنسبة إليه ، و كثيرا ما كانت أمه تتردد على المدرسة لتشكو للمدير و لعمي المهدي سوء معاملته من قبلنا سواءً في المدرسة أو خارجها ، فمجرد رؤيته كانت تطلق الهتافات و التعليقات التي تسخر منه

_ الجيلالي المحروق ، الجيلالي المشوط .

و كان يقابل هذه التعليقات بصمت و نظرات خبيثة و كأنه يتوعد الجميع ليوم قادم لم يحن بعد ، و كان يكتفي بأن يدك رأسه في الأرض و يمضي إلى حال سبيله .

كان عمي المهدي يتملص من شكاوى والدة الجيلالي المحروق و كان يطمئنها و يعدها بأنه سوف يعاقب كل تلميذ يسيء إليه في المستقبل ، و لكن عمي المهدي تناسى الموضوع و تجاهله على الإطلاق و لم يوبخ أحدً منّا ، و ترك التلاميذ على سجيتهم و طبيعتهم يعبرون كما يشاؤون ، و كثيرا ما كنت أسمعه و هو يكلم نفسه في فناء المدرسة .

_ التاريخ لا يرحم يا زوجة يأجوج و مأجوج ، الله يرحم سي قابيل الذي تركك على قيد الحياة .

(17)

كان يوما ربيعيا مشمساعطرت صباحه النسمات المنبعثة من أشجار الغابة المحيطة بالجبل ، و قد أعد أهل القرية العدة و حتى من القرى المجاورة ، إنّه يوم الخلاص بالنسبة إليهم و الوفاء لأولياء الله الصالحين ، ذلك اليوم الذي خطط له الشيخ عبد الوهاب بدقة و إحكام مع أعيان القرية لبناء قبر ومقام المقدمة عربية بجوار سيدي عبد القادر الجيلالي، كان الناس يتوافدون أفرادا و ركباناً لحضور هذا الحفل البهيج، والبناؤون يقومون بأعمالهم على أحسن وجه بعد أن إختارهم الشيخ عبد الوهاب بعناية فائقة .

دامت عملية البناء و التزيين أسبوعا كاملا ، و قد تطوع الجميع بأموالهم و جهدهم من أجل الحصول على البركة و الأجر و تقديم عربون وفاء لإحياء ذكرى المقدمة عربية التي عاشت بينهم و عايشت همومهم و كانت بلسما لجراحهم ، و كان الناس من الزوار يجدون متعة كبيرة و يحسون براحة عميقة و هم يتسلقون قمة الجبل غير عابئين بالمشقة أو التعب و الأطفال يتبعونهم و السعادة تغمرهم رفقة أمهاتهم و كل واحدة منهن تحمل في قلبها هموما و طلبات و حوائج تريد أن تستودعها من ترى أنهم أهل لها و جديرون بالإجابة عليها ، و تسمع إحداهن تطلق زفيرا ثم تنحل عقدة لسانها .

_ يا سيدي عبد القادر ، يا قاضي الحوائج ، جئناك بجاه المقدمة عربية أن تقضي حوائجنا .

فتجيب إمراة أخرى .

_ آمين يا رب العالمين .

عند قمة الجبل كانت قصاع الكسكسي المزركشة بحبات الحلوى و التمر و البيض و لحم الخروف و أباريق القهوة و الشاي و كل أنواع الخبز المعروفة بمنطقتنا و أنواع الحلويات المختلفة خاصة الكعك التقليدي تزين موائد البنائين و الزوار على حدٍّ سواء و بدون انقطاع ، و لقد إتفق أهل القرية بعد ذلك على تخصيص يوم في السنة للإحتفال بهذه المناسبة و تنظيمها بإسم و عدة المقدمة عربية و سيدي عبد القادر الجيلالي ، و لقد أصبحت هذه الوعدة على مر الأيام و السنين الوعدة المميزة في منطقتنا جميعا ، و كانت تستقطب الآلاف من الزوار المحبين .

و كان طلبة القرآن الكريم و شيوخهم في مثل هذا اليوم يقسمون أنفسهم إلى فوجين ، فوج يقرأ القرآن الكريم و الأدعية في مقام سيدي عبدالقادر الجيلالي و الفوج الآخر في مقام المقدمة عربية ثم يتناوبان على المكان وكانوا يقرأون سور القرآن الكريم متسلسلة إلى غاية طلوع الفجر ، وكان طلبة القرآن خاصة من الشباب يجدون متنفسا في هذه المناسبة التي ينتظرونها بفارغ الصبر ، إذ كان يحيطهم السكان بالرعاية

التامة والزيارة التي هي مبلغ من المال تقدم لهم كهدية عندما يبلغ الاحتفال نهايته ، وكانوا يجدون في ذلك المتعة والسعادة لا من أجل المال الذي تحصلوا عليه أو الرعاية التي حظيوا بها ، ولكن جلال المكان وجماله وقدسيته ورمزيته وكل الروايات التي حكيت وقيلت بشأن كرامات سيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء وخادمته المقدمة عربية ، فكانت تلك اللحظة بالنسبة إليهم بمثابة إنتساب و إنتماء لهذه الحضرة الروحية والفتوحات القدسية التي لا يستطيعون تصور حياتهم من دونها .

وبعد أيام و بعد الانتهاء من بناء المقام وتزيينه وتعطيره بما يليق به ، تحلق أعيان القرية وبعض الزوار حول مجلس الشيخ عبد الوهاب الذي كنت بقربه ، وكان الشيخ يشعر بفرحة كبيرة كأنه قد أدى مهمة كانت تثقل كاهله ، وكان الناس يسألونه عن كرامات المقدمة عربية فكان يجيبهم في حدود ما هو مسموح له ، لأن هناك كرامات لا يطلع عليها الناس وتبقى سرا للخاصة فقط ، وكانوا يصغون إليه بانتباه شديد لا يشغلهم في ذلك شيء ، وكأن الزمن قد توقف في هذه اللحظة بالنسبة إليهم، و كنت أنا في ذلك أحس بنوع من الضيق و الإنزعاج والخجل لأن التي يتحدثون عنها هي أمي وكثيرا ما كنت أسال نفسي.

_ هل يمكنني أن أكون في مستوى هذه الأم التي يتحدثون عنها ، هل يمكنني أن أكون جديرا بأن أكون إبنها وابنها الوحيد.

هل يمكنني أن أحفظ وأحافظ على تاريخها وتراثها وذكراها...؟

تلك هي الأسئلة التي كانت تراودني وتؤرقني عندما أسمع تقريظا من هنا وهناك عن أمي المقدمة عربية خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي ، كما كانت نظرات الناس وتهامسهم والتركيز على شخصيتي بين الجموع تضايقني شيئا ما ، لا لشيء ، إلا لأنني عبد القادر ابن المقدمة عربية وكأنني قد ورثت أسرارها وكراماتها ، وصادف مرة أن لقيني أحد الزوار فسألني :

_ هل أنت عبد القادر ابن المقدمة عربية ؟

_ أنا عبد القادر ابن المقدمة عربية .

_ لقد كنت أبحث عنك منذ الصباح .

_ خيرا إنشاء الله .

_ لقد أوصتني جدتي وهي عاجزة عن المشي أن أعطيك هذه الأمانة وطلبت مني أن أسلمها لك شخصيا وتقول لك أن المقدمة عربية قد زارتني في المنام وهي تسلم عليك وعلى خالتك سعدية .

تأملت هذه الأمانة قليلا ، فإذا هي صرة ملفوفة بوشاح أخضر لم أعرف ما بداخلها ، شكرته وطلبت منه أن ينقل سلامي وسلام خالتي سعدية إلى جدته الوفية المباركة ، عند عودتي إلى البيت لم أفتح الصرة وأعطيتها

لخالتي سعدية التي فتحتها بمعرفتها وعرفت بقصتها بعد أن قصصتها عليها وعند الصباح سألتها :

_ماذا كان بداخل تلك الصرة يا خالتي...؟

لم تجب ، سكتت برهة ، تأملتني قليلا ثم راحت تبكي ، وبعد لحظات استرجعت أنفاسها وأصلحت من حالها المضطرب ثم همست بصوت خفيف فيه حزن وتسليم .

_ كل الخير يا عبد القادر ، كل الخير يا عبد القادر ...

اكتفيت بهذه الإجابة ، ولم أسألها ثانية عن أمر هذه الصرة ، ولكني عرفت فيما بعد ، من نساء أهل القرية أن هذه المرأة العجوز كانت ملازمة لأمي في حياتها ، وأنها كانت مجذوبة ، أي من الناس الذين يكشف عنهم الحجاب فيطلعون على الحقائق والوقائع قبل حدوثها .

أمضيت نهاري كله شارد الذهن ، أفكر في أمر هذه الصرة وفي بكاء خالتي سعدية وحاولت أن أفسر اللغز بيني وبين نفسي فلم أستطع إلى ذلك سبيلا وحينئذ قلت في نفسي:

_ لو ورثت الكرامات عن أمي لما بقيت في هذه الحيرة ، لا شك أن هذه الصرة إشارة ، هناك أمر سيحدث دون شك ، ماهو ... الله أعلم.

ولكن هذه الهواجس قد تأكدت والإشارة قد ظهرت وحصل ما لم يكن منتظرا على الإطلاق ، الشيخ عبد الوهاب على فراش الموت وبعث يطلبني أنا وخالتي سعدية على الفور ، هكذا قال الرسول الذي كان وجهه مخطوفا ، تعجبت قليلا لأنه كان بالأمس في صحة جيدة ، فتجيبني خالتي سعدية التي لم يفاجئها هذا الخبر :

_ إنه أمر الله يا ولدي ، فأمره بين الكاف والنون ، ونحن ضيوف في هذه الدنيا والدوام لله وحده .

عندما دخلنا على الشيخ عبد الوهاب في بيته وجدنا أعيان القرية متحلقين حوله وعمي المهدي واحد منهم ، فسحوا لي طريقا ضيقا عندما طلب الشيخ أن أقترب منه وأجلس بجواره ، دعا لي في سره لبعض الوقت وطبع قبلة على جبيني ثم قال لخالتي سعدية .

_هل جئتني بالأمانة التي أوصيتك بها ...؟

_ نعم يا سيدي الشيخ ، هذه هي مسبحة المقدمة عربية رحمها الله .

لم أفهم في البداية شيئا ، ولكني عرفت فيما بعد أن الشيخ عبد الوهاب طلب من خالتي سعدية أن تحضر له مسبحة أمي رحمها الله حتى يلقى ربه و هو يذكره بها ثم تسترجعها فيما بعد ، وهذه المسبحة وما تحمله من أسرار أدخلت على قلبه السرور وهو يردد الشهادتين والقوم يبكون من حوله وخالتي سعدية تواسي أولاده وزوجته وتبشرهم بمقامه الكبير

عند الله ، فهو حافظ لكتاب الله و الحافظ لكتاب الله يشفع في سبعين من أهل بيته ، لقد عاش أبوكم تسعين سنة وهو يقرأ ويعلم القرآن ويفعل الخير ويصلح بين الناس ورافق المجاهدين والشهداء و الأولياء والصالحين ، هكذا كانت خالتي سعدية تخفف عن أهله وعلى كل الحاضرين ، وبالفعل كان الشيخ عبد الوهاب أبا للجميع وفي غمرة الانتظار والتسليم بقضاء الله وقدره ، إستجمع فجأة الشيخ عبد الوهاب قواه الأخيرة وطلب من عمي المهدي وكل الحاضرين أن يصغوا إليه بعناية .

_إني خائف، ليس من الموت ، فأنا كنت أنتظره بشوق كبير ، وكم تمنيت لو حظيت بالشهادة في الثورة مع إخواني ولكنها إرادة الله ومشيئته وتخطيطه ، إني خائف يا إخوتي من الآتي ، كلما تذكرت وصية المقدمة عربية وهي تحذرنا من يأجوج ومأجوج الذي سيظهر في هذا الزمان ، فأنا أوصيكم بوصية المقدمة عربية فهي ولية صالحة ، والحق الحق أقول لكم ، كل ما تنطق به يتحقق ولو بعد حين .

أكمل الشيخ عبد الوهاب جملته الأخيرة ورفع سبابته إلى السماء والمسبحة مشتبكة بأصابعه وأسلم الروح لبارئها ، و لم يمر وقت طويل حتى تقدم عمي المهدي وأغمض له عينيه و غطى وجهه والدموع تخنقه ولا تكاد تسمع إلا أصوات متقطعة .

_إنا لله وإنا أليه راجعون .

لقد شاهدت هذا المشهد لأول مرة في حياتي أي مشهد الموت ، إنسان أراه أمامي ، يحتضر ، يوصي ثم يموت ، ولم أكن أعرف معنى الموت ،فقد كنت أعتقد أن الموتى يذهبون ثم يعودون بعد ذلك إلى الحياة ، فكان الموت يعني الغياب بالنسبة لي ليس إلا ، فظلت هذه الفكرة تراودني طوال طفولتي وعندما كان يطرق بيتنا طارق كنت أمني نفسي دائما أن يكون الطارق أمي و أبي فأحتضنهما للأبد ، حيث يتوقف الزمان ويموت الموت وتحل السرمدية .

(18)

إنصرمت أيام الدراسة بقريتنا بعد أن أنهينا المرحلة الإبتدائية باقتدار وبإمكانيات بسيطة وظروف صعبة، ولكن حرص أهالينا المفرط والمبالغ فيه وإيمان عمي المهدي وزملائه برسالتهم وإخلاصهم وتفانيهم في عملهم سهل كل شيء أمامنا ، فلقد كانوا بالنسبة لنا وفي كل الأوقات، آباء وليس مجرد موظفين أو جيران ، وكان دورهم يتعدى حدود المدرسة ، فتجدهم في المساجد والأسواق والمناسبات يفرضون احترامهم وهيبتهم ، إذ كانت لهم مكانة خاصة عند الجميع وبدون استثناء ، إذ لا يحدث شيء في القرية مفرح أو محزن إلا وكانوا أول من يعلم به سواء كانت دعوة زواج أو بلاغ عن جنازة أو مساعدة فقير ومحتاج ، لقد كان المعلم مثالا يقتدى به ومفتاحا للمستقبل بالنسبة للعائلات التي كانت تبحث عن مكان لها تحت الشمس ، فالعلم مفخرة والحصول على الشهادة هو تكريم للعائلة التي ينتسب إليها التلميذ الناجح والعكس صحيح ، لذلك كانت العائلات تتنافس فيما بينها حتى ولو كان ذلك بشكل خفي وغير معلن ، وبانتهاء المرحلة الابتدائية توجهنا إلى ثانوية جمال الدين الأفغاني بمعسكر ، أعرق ثانوية في الغرب الجزائري ، وكان يقصدها تلاميذ كثيرون من كل الولايات والأرجاء ، وبهذه الثانوية يجتاز التلميذ الطورين معا ، المتوسط والثانوي ، وكان النظام بالنسبة إلينا داخليا فيه صرامة ودقة ومسؤولية وانضباط ، وكان هناك أساتذة من جنسيات مختلفة من الدول العربية الشقيقة إضافة إلى الأساتذة الجزائريين ، فلقد

كان هناك الفلسطينيون و المصريون و السوريون والعراقيون يدرسون تخصصات متعددة في المواد الأدبية والعلمية على حد سواء ، وكانت لنا فرصة بهذه المناسبة ولي شخصيا أن نتعرف على ثقافات وآفاق أخرى وذهنيات مغايرة ، ولقد شدني إلى بعض هؤلاء الأساتذة ، أنه بالرغم من تخصصهم العلمي إلا أنهم كانوا متبحرين وعلى اطلاع واسع بكل أنواع الأدب وأجناسه ، فكان منهم من يكتب القصة والخاطرة ومن ينظم الشعر ، وفيهم أيضا من يكتب المسرحيات ، ومن خلالهم استطعت أن أتعرف على الكثير من الكتاب والشعراء العرب ، مثل الكاتب حنا مينة السوري وتوفيق الحكيم والشاعر نزار قباني ومظفر النواب من العراق الذي كنا نجد في شعره دعوة إلى الثورة والتمرد ومحاربة النفاق ، هذه الأجواء الثقافية الجديدة التي عشتها هي التي جعلتني في المرحلة الثانوية وأغرتني أن أختار شعبة الآداب ، ولقد اخترتها عن قناعة ومحبة ، لأنها كانت تنسجم وتتلاءم مع رغباتي وتطلعاتي المستقبلية وهواجسي الفكرية ، لم أكن الوحيد من القرية في هذه الثانوية ، فلقد كان هناك زملاء كثيرون ، حتى أن الجيلالي ابن يأجوج ومأجوج كان يدرس معنا ، وكان كعادته قليل الكلام والأصدقاء ، منكمشا على نفسه ، يحتمي دائما بالبكاء عندما يعترضه مشكل دراسي أو يتحرش به زميل في الدراسة ولو كان ذلك على سبيل الدعابة فقط ، ولقد خفت لهجتنا اتجاهه مع مرور الوقت ، ربما نظرا لتقدمنا في السن ، أو ربما هي الرغبة في النسيان وفتح صفحة جديدة دون طي الصفحة السابقة ، ولكنني ربما كنت أنا الوحيد

الذي عندما أراه أرى في وجهه مأساة قريتنا وتتزاحم في ذاكرتي ذكريات أليمة ذكرى أبي وعمي وجدي وجميع الشهداء الذين كان أبوه يأجوج ومأجوج سببا مباشرا في مأساتهم وغيابهم عنا ، وعندما كنت أعيش الماضي في الحاضر ، كنت أعيشه في وجداني وعقلي ولا أجد طريقة للتعبير أو التنفيس عن كل ذلك إلا بهذه العبارة التي كان ينطق بها قلبي دائما:

_ يكفيه أنه يجر عاره وراءه.

كنت أنا وزملائي نفتقد قريتنا كثيرا ، وكنا ننتظر أن تنقضي أيام الأسبوع حتى نعود إليها مسرعين ، فلقد كانت القرية بيتنا الأول وقبلتنا الأولى وحبلنا السري الذي لا ينقطع أبدا ، إذ فيها نمت شخصيتنا وتفتق شعورنا وانفتح على العالم الخارجي ، وكنت بين الفينة ولأخرى أزور عمي المهدي الذي كان يسكن بجوار المدرسة وكان عند رؤيتي يفرح الفرح الشديد وكان يخاطبني دائما في حنو أبوي .

_ يا ابن الغالي والغالية ، توحشتك بزاف ، والله كبرت وأصبحت رجلا .

لقد كان عمي المهدي مثلا أعلى بالنسبة لي ، سواء في شخصيته أو سلوكاته و تصرفاته ، كنت أرى في عينيه البارقتين صفاء الثورة ونقاوتها ، كان يذكرني دائما بهذا الخيط الخفي المضيئ الذي يربط بين جيل الثورة وجيل الإستقلال ، كانت شخصيته تختزل تاريخا كاملا ،

مرحلة كاملة من تاريخنا البطولي ، ولقد كنت دائما عندما ألتقيه أسأله بشغف عن أبي الذي لم أره وعن والدتي المقدمة عربية التي لا أكاد أذكر ملامح وجهها ، فكان يجيبني بعد أن يطرد غمامة من الحزن كانت تخيم على وجهه باستمرار عندما أعود بذاكرته إلى الوراء ويروي لي قصصا وحكايات وبطولات وكرامات تجعلني أسبح بخيالي لأستحضر صورهم وأنفاسهم في الحاضر وأستمتع بالنظر إليهم كأنهم حاضرين بيننا ، وكان الزمن يسرقنا و يمر بسرعة ونقضي الساعات الطوال بدون ملل أو كلل ، أنا أسأل وعمي المهدي يجيب إلى أن ينهي حديثه بطريقة دبلوماسية .

_ هذا حق اليوم ، فلتترك ما تبقى ليوم آخر .

لقد تأثرت كثيرا بشخصية عمي المهدي وتبحره الواسع في التاريخ وتاريخ الثورة تحديدا ، لذلك قررت منذ الوهلة الأولى أن أكون معلما وأن أدرس التاريخ بالجامعة عندما أنجح في شهادة البكالوريا ، وكان عمي المهدي يرافقنا في كل ذلك ويتابع مسارنا الدراسي ويشجعنا ويسألنا عن كل صغيرة وكبيرة ويحثنا على التحصيل العلمي وضرورة التفوق والتميز في الدراسة وكنا نتلقى تلك التوجيهات بروح إيمانية تتجاوز أحيانا مداركنا العقلية وتجربتنا القصيرة في الحياة .

وأذكر أنه في السنة النهائية من التعليم الثانوي وبتوجيه من عمي المهدي ، وعندما كنا على مقربة من أسبوع على اجتياز إمتحان شهادة البكالوريا ، كنا نأخذ كراريسنا وكتبنا ونتسلق الجبل ، ونشكل مجالس

للحفظ والمراجعة في مقام المقدمة عربية وسيد عبد القادر الجيلالي، كنّا نقضي الوقت منذ الصباح إلى غاية دخول وقت العصر ، كانت خالتي سعدية تتكفل بمؤونة الغداء التي إعتادت أن تجلبها معها في منتصف النهار، و كان يفعل كذلك جميع الأهالي و أحيانا يرسلون أبناءهم محملين بأشهر الأطباق لنفس المهمة، وكنا نتشارك الطعام بيننا بفرح وسرور، و كنا نتنافس على بطولة أشهر طبق في اليوم و من هي الأم التي تحظى بهذا الشرف، و لكننا في أغلب الأحيان لم نكن نصل إلى قرار موحد.

كان المكان ملائما جدا لأنـه كان يوفر الصمت و السكينة و الهدوء وكل ما يحتاجه الإنسان لتنقية فكره و تطهيره من الشوائب والمنغصات والتركيز فقط على الدروس و إلتهامها و تخزينها في الذاكرة.

كما كان المكان بالنسبة لي وللجميع مكانا مباركا، يكفي فقط أن تخلص فيه النية لتتحقق أمنياتك و تقضى حوائجك، كان المكان يعج بالتلاميذ الذين التحقوا فيما بعد في الأيام الأخيرة من الأسبوع، خاصة من القرى المجاورة رغبة في إحراز بركة المقدمة عربية وسيدي عبد القادر الجيلالي ما عدا ابن يأجوج ومأجوج الذي لم يتسلق الجبل ولو مرة واحدة ولم نره قط في هذا المكان، وبعد إجتياز الإمتحان في آخر السنة إنتظرنا مدة شهر كامل نترقب النتائج والتي لم تكن عند ظهورها مخيبة على الإطلاق، فلقد نجحنا جميعا وبتفوق كبير، وكانت فرحة خالتي

سعدية وعمي المهدي أكبر من فرحتنا، وكما كان متوقعا فشل ابن يأجوج ومأجوج ولم يتحصل على شهادة البكالوريا ومنذ ذلك الحين لم نر له أثرا.

(19)

مرت سنوات الجامعة وكأنها أيام فقط ، وأذكر أني أخضعت نفسي لنظام عسكري صارم ، فكنت أقضي يومي بين مدرجاتها ومكتباتها المختلفة ، وفي نهاية اليوم أعود قافلا لغرفتي بالحي الجامعي ، وكانت الأيام تتكرر على هذا المنوال ، وكانت غرفتي في الليل منتدى ثقافيا يحتدم فيه النقاش ويشتد عند مناقشة كتاب أو وجهة نظر وكانت الآراء تتضارب وتختلف، ورغم أن النقاش الهادف كان لا و يزال فضيلة علمية ومنهجية عندي، إلا أني كنت أتضايق أحيانا عندما يطول الوقت لساعات متأخرة وأحيانا يدركنا الفجر ، لأني في الغرفة كنت أجد ذلك السلام الداخلي بيني وبين نفسي بعد التحرر من العالم الخارجي ، ولن يكون ذلك إلا في وحدتي وعزلتي وشعوري العميق من خلال قراءة كتاب جديد أو إعداد بحث ومراجعته في المستقبل ، كان الزملاء ينظرون إلي باعتباري ذلك الطالب الجاد والمنضبط والذي سوف يكون له شأن كبير في قادم الأيام ، وكنت في الحقيقة لا أبخل عليهم بشيء وأضحي بوقتي من أجلهم وأعيرهم الكتب التي يحتاجونها وأناقش معهم منهجية بحوثهم حتى أطلقوا علي لقب المستشار المنهجي وعلى غرفتي دار الندوة على غرار دار الندوة التي كان يجتمع فيها سادات قريش من أهل الرأي والمنشورة لمناقشة الطوارئ والنوازل التي كانت تنزل بهم ويتخذون بشأنها القرار المناسب .

كانت وهران و لازالت مدينة جميلة وأهلها طيبون ومتسامحون ، لا تشعر فيها بالغربة أبدا ، مدينة سكن فيها ألبركامي وكتب فيها رائعته الأدبية الطاعون ، ولكن وهران كانت تعني لي بالأساس مدينة أولياء الله الصالحين ، مدينة سيدي الهواري الذي يتوارث أبناء وهران إسمه جيلا بعد جيل ، فكل أولياء الله الصالحين ينتسبون لسيدي عبد القادر الجيلالي سلطان الأولياء ، وعندما كنت أتجول في شوارعها ، أتذكر وجوه الطلبة والمجاهدين الذين كون منهم محمد بن عثمان الكبير باي معسكر جيشا لتحرير وهران من الإسبان ، وكان ذلك بالفعل سنة 1792سنة تحرير المدينة النهائي من الوجود الإسباني ، أتذكر هذه الوجوه المشرقة من هؤلاء الأبطال الذين لم يعد معظمهم إلى بيوتهم و أهاليهم بمعسكر لأنهم إستشهدوا في معركة تحرير المدينة ، مدينة وهران ، عروس البحر الأبيض المتوسط ، كنت أرى في وهران امتدادا لقريتي ، وكنت أرى فيها التاريخ الزاحف الذي لا ينقطع ولا ينفصل ، كان الحنين إلى القرية يشدني إليه بقوة ، فقد كنت أزورها وأعود إليها كل ثلاثة أشهر و كل مرة كنت أعود إليها كانت تزداد بهاء وجمالا ، إذ تغيرت ملامحها العمرانية بفعل عجلة التنمية والتطور التي عرفها البلد بعد الاستقلال ، وكانت غيبتي عن القرية التي كانت طويلة في نظر خالتي سعدية تؤرقها أحيانا ، ولكن قطعت عهدا على نفسي أن أكون من الطلبة المتفوقين ، فقد كنت أربط نجاحي بتضحياتها وأردت أن أرد لها الجميل رغم أني مهما فعلت لن أستطيع إلى ذلك سبيلا ، كما كنت

أيضا أريد أن أحقق رغبة عمي المهدي الذي كان يتابع مساري الدراسي و أخباري أولا بأول ، ولقد تفاجأت به عدة مرات يزورني بالجامعة ويجلب لي بعض الأغراض كانت ترسلهم معه خالتي سعدية ،وكان كلما يحضر إلى الجامعة يحظى بإستقبال حار ، لأن مدير الجامعة آنذاك كان مجاهدا وكان يعرفه منذ زمن الثورة ، ولقد عرفت دون أن أسأل أني كنت محورا وموضوعا لحديثهم كلما جمعهم هذا اللقاء ، وبالفعل ، لم تمر أيام قليلة بعد اللقاء الأول بين عمي المهدي ومدير الجامعة حتى وصلني إستدعاء من هذا الأخير يطلبني في مكتبه لأمر عاجل ، استغربت للمرة الأولى ، لماذا يطلبني دون باقي الزملاء ، لماذا أنا بالتحديد، لأن عمي المهدي لم يخبرني بذلك ، بقيت الليل كله أفكر ، ماذا يريد مدير الجامعة مني ، هل بدر مني شيء ، هل حدث مكروه لخالتي سعدية ، هل طرأ شيء جديد ، لا أعرف ، تساؤلات كثيرة ، لم أجد لها جوابا ، ومن خلال هذا الاستدعاء كان المدير يطلبني في مكتبه على الساعة الثامنة صباحا.

في الصباح الباكر ، لبست ثيابا أنيقة احتراما لصاحب الدعوة ومقامه وذهبت قبل الوقت المحدد ، ولكني وجدت المكتب مفتوحا وخاطبتني السكرتيرة على الفور بمجرد أن وقع بصرها علي وكأنها كانت تنتظرني منذ مدة .

_هل أنت عبد القادر طالب التاريخ ؟

_نعم.

_المدير بانتظارك ، تفضل من هنا.

وكم كانت دهشتي كبيرة ، إذ وجدت المدير قائما ينتظرني وكله لطف وبشاشة ووقار بما بدد كل الهواجس في نفسي واطمأن قلبي .

_ أهلا يا عبد القادر يا ابن الغالي والغالية ، تفضل اجلس .

إنعقد لساني وأنا أسمع هذه الكلمات وهذا الترحيب الخاص ، هل يعرف أبي ، هل يعرف أمي ، كيف ذلك ، وعندما أدرك المدير دهشتي تابع الحديث لتوضيح الصورة:

_ أنت لا تعرفني ، لكني أنا أعرفك جيدا ، أعرف أباك الشهيد محمد وأمك المقدمة عربية وكل تاريخ قريتكم تقريبا ، لا تستغرب يا بني ، فلقد كنت مجاهدا في الثورة وكنت مع الحاج المهدي في نفس الكتيبة ، وهو الذي كان ينقل إلينا أخبار قريتكم ، وكرامات المقدمة عربية خادمة سيدي عبد القادر الجيلالي التي كان يتغنى بها الجاهدون في الجبال ، فلقد كانت وقودا لحماسهم وشجاعتهم وإقدامهم في ساحة المعركة .

توقف عن الكلام فجأة وراح يتفرس وجهي جيدا ثم انطلق لسانه من جديد :

_ لقد سمعت أنك طالب ممتاز ومجتهد ولا خوف عليك من هذا الجانب ، أما الجوانب الاجتماعية الأخرى وكل ما يتعلق بالمسكن والإيواء والطعام وحتى المال إن احتجت إلى ذلك فلا تتأخر في الطلب فأنا رفيق والدك الشهيد حتى ولو لم نكن في نفس الكتيبة وأنا في مقامه اليوم ، واعلم أن باب مكتبي مفتوح لك دائما .

لم أجد الكلمات المناسبة للتعبير ، هل أشعر بالفخر والاعتزاز أم بهذا التاريخ العظيم الذي أجره ورائي وأجده دائما أمامي ، ورحت أسأل نفسي هل أستطيع أن أحافظ عليه وعلى نبعه الصافي المتدفق ، وبعد أن استفقت قليلا ، قمت من مكاني وأجبت بصوت خافت فيه قليل من الارتباك.

_ إن شاء الله يا أستاذ سأكون عند حسن ظنك بي.

_لا تنس ذلك وأبواب مكتبي كما قلت لك مفتوحة لك دائما ، مع السلامة يا عبد القادر.

_ مع السلامة يا أستاذ .

خرجت من المكتب وتوجهت مسرعا إلى غرفتي ألملم أفكاري وأرتبها وأنظمها ، لقد أسعدتني هذه الدعوة دون شك ، لأنها بينت لي أن إرث آبائي وأجدادي يتجاوز قريتنا إلى مدن أخرى وربما في البلاد كلها ، كما أنها أحزنتني من جهة أخرى ، لأني لا أريد أن أعامل معاملة خاصة ،

دون زملائي الآخرين وحتى هذه المقابلة والدعوة لم أخبر بها أحدا من زملائي ، لقد كانت نية المدير حسنة وصادقة ، ولكني لم أر مكتبه منذ ذلك اليوم ، ولقد اشتكى المدير إلى عمي المهدي مرات عديدة ولكن دون جدوى .

مرت السنوات مثل الأيام والأيام مثل اللحظات وفاجأتنا عجلة الزمن كما يقولون حتى وجدنا أنفسنا في السنة الأخيرة ، سنة التخرج وتوزيع الجوائز على المتفوقين ، كان عمي المهدي في المنصة مع مدير الجامعة بعد أن ألح عليه بذلك وعمي المهدي يتمنع حتى أحرجه ، وكانت خالتي سعدية في الصف الأول ونودي على عبد القادر لتسلم الجائزة الأولى باعتباره الأول في دفعته ، انتابني شعور غريب في هذه اللحظات ، فقد كنت أشعر أن روح أمي وأبي ترفرفان فوق هذا المكان ويشهدان هذا التتويج ، وقد لاحظ جميع الزملاء شرودي وكأني كائن مجنح لا أدري هل أنا في الأرض أم في السماء ، كانت المفاجأة الكبرى عندما أعلن مدير الجامعة شخصيا أن عبد القادر باعتباره الأول في دفعته فإنه سوف يستفيد من منحة دراسية بالخارج لاستكمال أبحاثه العليا في التاريخ ، فاجأني الأمر كثيرا وكأني أحلم ورحت أردد في نفسي .

_ بركاتك يا المقدمة عربية ، يا سيدي عبد القادر الجيلالي.

ولكني بعد ذلك ، شعرت بالحيرة والحزن عندما رأيت وجه خالتي سعدية قد إنخطف وتغير لونه ، وحتى عمي المهدي لاحظ ذلك ، لأنه

أعلم بسرائرنا وبأمور العائلة ، فالدراسة في الخارج كانت تعني الغربة والابتعاد وتوقع المفاجآت ، هكذا كانت تفكر خالتي سعدية وتقول في نفسها ، كانت سعادتها بالتتويج ممزوجة بالحزن ، ولكنها عبثا حاولت إخفاء ذلك ، وفي الأخير سلمت بالأمر الواقع وتركت الأمر لصاحب الأمر ، و في طريقنا إلى البيت من وهران إلى قريتنا الصغيرة ظلت خالتي سعدية صامتة واجمة كأن على رأسها الطير ، رغم محاولات عمي المهدي لاستدراجها في الكلام وكان يعلم سر صمتها وحزنها وكان يقول لها مداعبا وهو يقود سيارته .

_ عندما انطلقنا في الصباح كنت سعيدة ، وكنت لا تتوقفين عن الكلام ، وأثناء عودتنا لم نسمع كلمة منك ، هل أكلت القطة لسانك؟

_ الآن أصبحت مطمئنة على مستقبل ابني عبد القادر وقبل ذلك كانت تطاردني الأسئلة والهواجس ، وليس مع رأى كمن سمع ، وأنا اليوم رأيت وسمعت كل شيء ، لقد كنت هناك ، نعم كنت هناك. وعندما أحس عمي المهدي بمرارة حزنها أراد ملاطفتها بتغيير الموضوع قليلا نوعا ما .

_ لم تبق إلا أيام قليلة على وعدة المقدمة عربية وسيدي عبد القادر الجيلالي ، وتذكري أن المناسبة مناسبتان ، مناسبة هذه الوعدة المباركة ومناسبة نجاح إبننا عبد القادر ، لذلك سوف نضاعف الذبائح هذه السنة فكوني مستعدة من الآن .

فتجيبه خالتي سعدية وكأنها تتخلص من همومها تدريجيا .

_ إن شاء الله ، إن شاء الله.

كنت أستمع بعناية شديدة لهذا الحديث الذي كان يدور بين عمي المهدي وخالتي سعدية ، ولكني كنت في قرارة نفسي أبحث عن القرار المناسب وأخيرا توصلت إلى قراري .

_ لن أذهب إلى الخارج وأترك قريتي و خالتي سعدية.

وعبثا حاولت فيما بعد إقناعي بغير ذلك ، و حتى عمي المهدي الذي كان أعلم بنفسيتي لم يجادلني في الأمر كثيرا ، لقد اتخذت قراري ورسمت مصيري بيدي .

(20)

كنت في البيت منعزلا في غرفتي منكفئا على نفسي ومستغرقا في قراءة كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) للفيلسوف الجزائري الأمير عبد القادر الجزائري عندما طلبني عمي المهدي مستعجلا ، وسبقتني خالتي سعدية للباب مرحبة وهي كلها حيوية ونشاط ، وتردد عبارتها الشهيرة :

_ عندما يأتي الحاج المهدي يأتي الخير معه .

ثم راحت ترحب به بطريقتها الخاصة وهي ميزة تميزت بها مع كل أهل القرية ، فلا يسبقها أحد في الكرم أو الجود أو مساعدة المحتاج .

_ لقد جئت في الوقت المناسب ياَسي الحاج ، لقد انتهيت للتو من إعداد القهوة والحليب والخبز الذي تحبه.

_ سأشرب القهوة وآكل الخبز ، ولكني قبل ذلك أحمل لك ولعبد القادر خبرا سارا .

تساءلت خالتي سعدية : ما هو هذا الخبر السار ، وتذكرت المنحة التي رفضتها للدراسة بالخارج ، هل هي منحة جديدة : فاختلطت فرحتها بظنونها وأرادت أن تعرف هذا الخبر على الفور وعمي المهدي يتلاعب بأعصابها ويشوقها أكثر .

_ سأقول لك ولكن بعد شرب هذه القهوة المعطرة وأكل هذا الخبز المبارك الذي تفوح منه رائحة المسك.

و بعد أن ارتشف رشفة أو رشفتين من فنجان القهوة وأكل قليلا من الخبز ممزوجا بسمن النعاج الذي يحبه ، حتى أفرج عن الخبر السار الذي أسعدني وأسعد خالتي سعدية في نفس الوقت .

_ لقد تم تعيينك أستاذا لمادة التاريخ بثانوية جمال الدين الأفغاني ، وهذا هو التعيين ، مبروك عليك. لقد غمرتني سعادة كبيرة لأني سوف أجني ثمار ما زرعت كما أني سوف أدرِّس في نفس الثانوية التي درست فيها ، لقد غادرتها وأنا تلميذ ، وها أنا ذا أعود إليها و أنا أستاذ ، أحيانا يجري بنا الزمن دون أن نحس بذلك حتى يتوجنا بأحزانه أو أتراحه فنتذكر الشريط من جديد ، شريط الدقائق والأيام والسنين وكل اللحظات الهاربة التي ننساها أو نتناساها ، شكرت عمي المهدي كثيرا لأنه كان في مقام أبي وكان كل البريد الخاص بي يمر عليه ، ولكن خالتي سعدية لم تتمالك نفسها وأطلقت الزغاريد في كل الإتجاهات وهب كل الجيران من كل مكان من أجل التبريك ، وهم يتساءلون :

_ الحاجة سعدية خطبت عروسا لعبد القادر ولم تخبرنا بذلك.

و ما هي إلا دقائق معدودات حتى أصبح البيت مكتظا عن آخره بالجيران و الأقارب والأصدقاء وهم ينتظرون سر هذه الزغاريد وصاحبة الحظ التي ستكون عروسا لعبد القادر.

_ مبروك الحاجة سعدية لقد فعلتها من ورائنا ، لم تعجبك بنات القرية ورائحة الغالي ، ألم أقل لك أن ابنتي فتيحة هي الزوجة المناسبة لعبد القادر على كل حال ، الزواج قسمة ونصيب والقلب وما يختاره.

هكذا تسألها وتلومها امرأة من أقارب أبي ، فتضحك خالتي سعدية إلى حد أن سالت الدموع على خديها فازدادت حيرة الحاضرين و استغرابهم.

_ ليس الأمر كما تتصورون ، اطمئني يا لالة مريم ، فتيحة سوف تكون من نصيب عبد القادر ، لقد فاتحته في الموضوع ووافق ، ولكن فرحتي اليوم أن عبد القادر قد أصبح أستاذا وسوف يدرّس في السنة القادمة ، لقد أصبح رجلا كاملا ، الحمد لله لم يذهب تعبي سدى العاقبة لأبنائكم إن شاء الله.

وما كادت خالتي سعدية تنهي جملتها الأخيرة حتى تعالت الزغاريد دفعة واحدة أصمت الآذان خاصة لالة مريم قريبة أبي التي لم تتوقف في عزف الزغاريد وبكل الألحان.

حل العام الدراسي الجديد واستلمت الوظيفة ، وكنت أمارس مهنتي بصدق ومحبة وشوق ، فلا يكاد يوم يمر وينتهي حتى أترقب أن تطلع

شمس الغد لألتحق بالمؤسسة من جديد وملاقاة التلاميذ في محراب الدرس ، كانوا يحبوني ويحبون طريقة شرحي للدروس وأيضا للمعلومات المهمة التي كنت أزودهم بها من خلال البحث والتمحيص من أمهات الكتب ، حتى صرت الأستاذ رقم واحد في التخصص ، هكذا كانوا يقولون ، وهذا مما جعل بعض الزملاء يشعرون بالحرج أحيانا دون أن يبدوا ذلك ، ولكن عبثا يحاولون ، كنت منضبطا مع الوقت ومؤدبا مع الجميع ، لا أتغيب أبدا حتى في الظروف التي لم تكن صحتي تسمح بذلك ، فالتعليم كان عندي رسالة مقدسة في سبيلها تهون كل التضحيات ، وإذا كانت الأعمال تقاس بنهاياتها فإن النتائج في البكالوريا كانت مذهلة في مادة التاريخ ، مما زادني ثقة في النفس و أكسبني شرعية علمية عند التلاميذ والزملاء و المسؤولين على حد سواء ، وأصبح إسمي لامعا ليس في مؤسستنا وحسب ، بل في كل المؤسسات التربوية الأخرى ، ولكن التدريس بالثانوية والتعطش للعلم وطلب المزيد أعطاني القناعة الراسخة بحتمية مواصلة مشواري العلمي و الإلتحاق بالجامعة من جديد وهو ما كان بالفعل ، ، إذ نجحت في مسابقة الماجستير بتفوق وعينت أستاذا معيدا بقسم التاريخ ، وأذكر أن خالتي سعدية لم تنم في تلك الليلة من شدة فرحها.

كانت الجامعة في هذا الزمن تعج بالتيارات المذهبية والفكرية والسياسية، وكان كل طرف منحازا للمذهب أو للتيار السياسي الذي ينتمي إليه ، وكان هناك صراع دائم بين التيار اليساري والتيار الإسلامي ،

بين من يحمل شعار الديمقراطية ومن يحمل شعار الإسلام ، واكتشفت لأول مرة كتب السيد قطب وأبو الأعلى المودودي وحسن البنة وأشرطة الشيخ كشك الذي كان ينتقد الأنظمة السياسية في الوطن العربي ، وكانت هذه الكتب وهذه الأفكار تنتشر بقوة بين الطلاب أصحاب العاطفة العمياء ، وكانت تقام الندوات هنا وهناك و السجالات والمناظرات الإيديولوجية وأصبحت الأحياء الجامعية قبلة ومزارعا للشيوخ والزعماء ، كنت أعتبر الأمر شيئا طبيعيا في أول الأمر ، لأنه من الطبيعي أن تختلف الآراء والأفكار ولكن مع مرور الوقت تغير موقفي تماما وهذا عندما رأيت بأم عيني هذه السجالات الإيديولوجية تتحول إلى خصومات والخصومات إلى عنف ، وإلي صراع أحيانا حتى الموت ، وانتشرت المواجهات في الأحياء الجامعية وحتى داخل الجامعة وسالت الدماء ، لقد كان صراعا حتى الموت ، نعم صراع حتى الموت ، بعد أن يتم تكفير الطرف الآخر ، وهكذا كانت أحوال الجامعة في الثمانينيات وبداية التسعينيات حيث بدأت تظهر الأفكار التكفيرية وتكشر بأنيابها ، وحتى الطلبة المتخرجون عندما يعودون إلى قراهم ومداشرهم ومدنهم يرجعون وهم محملون بهذا الوباء وهذا الطاعون الزاحف ويعملون على نشره في بيئتهم ، بل و في المؤسسات المختلفة التي يلتحقون بها كموظفين ، و هكذا صار للتطرف فضاء أوسع و أرحب و تأسست الجماعات و النوادي السرية و العلنية ، و تجرأ البعض و جهروا

علانية بأن هذا المجتمع جاهلي و كافر ، لأنه ابتعد عن شريعة الإسلام ، لذلك وجب تغييره بالقوة و الجهاد .

عندما كنت أعود إلى قريتي ، كنت أسمع عن أخبار القرى المجاورة خاصة أخبار الشباب منهم ، الذين أطلقوا لحاهم و أفتوا بحرمة الوعدة واعتبروا أن مقامات الأولياء أوثانا و أن من يزورهم مشرك بالله ، كان عمي المهدي أحيانا يدخل في مناظرات مع هؤلاء الشباب الذين كان يلتقيهم خارج القرية لتصحيح أفكارهم و تنبيههم إلى خطورتها و عواقبها ، و لكنه عبثاً حاول ، و لم يكن يصل معهم إلى نتيجة لأنهم كانوا متعصبين و لا يرون إلا رأيهم و كأنهم مخدرين أو منومين ، و عندما كنت ألتقيه و أناقش معه هذا الفكر الوافد ، كان يقول لي متحصرا :

_ إن الوطن يسرق منا و نحن غافلون، الله يحفظ هذه البلاد.

فأسأله مرة أخرى :

_ ما هو الحل ، إنهم لا يقتنعون إلا بما يعتقدون.

_ في الحقيقة يا عبد القادر ، عندما أتأمل هذه الأمور جيدا ، أتذكر وصية والدتك المقدمة عربية التي حذرتنا من عودة يأجوج و مأجوج ، حتى الشيخ عبد الوهاب تذكّر و ذكّرنا بذلك عند موته ، فالخوف كل الخوف أن يكون هذا الإنذار الذي يسبق العاصفة ، إنني لا أنام من

كثرة التفكير ، لقد بدأت رياح يأجوج و مأجوج في الهبوب ، الله يجيب الخير عندما تمطر.

و بالفعل كان توقع عمي المهدي في محله ، فقد سمعنا أن ابن يأجوج و مأجوج قد أطلق لحيته في قريته و أصبح زعيما لجماعة دينية ، تكفِّر المجتمع و تدعو إلى تحطيم قبور أولياء الله الصالحين ، و عبثا حاول أن ينشر أفكاره بقريتنا ، إذ قاموا بمطاردته و طرده من المسجد بعدما أبلغ عنه عمي المهدي أهل القرية الذي كان يتابع نشاطه و تحركاته و عندما أوضح لهم قصده و الأفكار الخبيثة التي كان يحاول أن ينشرها بين أبنائهم ، كانت قريتنا هي القرية الوحيدة التي لم تفلح فيها هذه الجماعات ، لقد كانت عصية عليهم ، كانت محصنة ، و كان عمي المهدي صاحب التجربة الطويلة و الحس الوطني بالمرصاد لهم دائما .

ناقشت شهادة الماجستير و الدكتوراه و أصبحت دكتورا صاحب إسم و شأن ، لكن الأوضاع لم تكن تعجبني ، كنت متوجسا من هذه الأحوال و هذه الجماعات و السلوكات الغريبة عن مجتمعنا ، حتى خالتي سعدية أحست بذلك ، فقط أخبرتني أن زوار مقام سيدي عبد القادر الجيلالي و المقدمة عربية في تناقص مستمر ، خاصة من المدن و القرى المجاورة ، فأدركت يقينا أن ابن يأجوج و مأجوج قد نجح في نشر سمومه بهذه القرى الهادئة و المسالمة .

(21)

كان ابن يأجوج و مأجوج يشتغل حلاقا بالقرية ، لكن مهنة الحلاقة لم تكن مصدر الدخل الوحيد له و لعائلته ، فلقد كانت أمه تتلقى منحة شهرية من فرنسا نظير خدمات زوجها في جيش الاحتلال الفرنسي باعتباره حركيا ، و الذي قام جيش التحرير الوطني بالقضاء عليه و على أمثاله من الخونة ، لذلك كانت آثار النعمة تبدو عليه و على أمه و أفراد عائلته ، و كانت مهنة الحلاقة مجرد غطاء لإخفاء منحة العار و الخيانة ، و بعد توقيف المسار الانتخابي في البلاد أو بالأحرى المسار الانتحاري و اغتيال الرئيس الشهيد محمد بوضياف رحمه الله ، توسعت رقعة الإسلام السياسي و ظهرت الجماعات المتطرفة التي تدعوا إلى العنف و تكفير المجتمع و رفعت شعار الإسلام هو الحل ، و هو حق أريد به باطل ، ممّا ساهم في التغرير بالكثير من الشباب المتحمس الذي كان قشة في مهب الريح .

و في هذا الخضم و الأمواج المتلاطمة ، غابت نور الشمس قليلا و حل الظلام و استطاع ابن يأجوج و مأجوج تحت تأثير هذه الظروف أن يمتطي الموجة الجديدة و يقوم بتصفية الحسابات القديمة ، إذ بقدرة قادر أصبح زعيما لجماعة دينية تأتمر بأوامره ، يفتي و يحكم على الناس بالكفر و الإيمان و يتوعد المخالفين ، و عندما سأله أحد أتباعه عن قريتنا ، بإعتبارها القرية الوحيدة التي لم يستطع اختراقها بفكره

الظلامي المتوحش كان يجيبهم و شفتاه ترتعدان و هو ضاغط على أسنانه .

_ تلك القرية الضالة المشركة ، عبدة الأوثان و المقامات ، سيكون حسابهم عسيرا ، و سترون من سيفوز في النهاية .

لقد بدأت جماعة ابن يأجوج و مأجوج جماعة دينية تكفِّر المجتمع و ترفع شعار الإسلام هو الحل ، ثم تحولت إلى جماعة مسلحة ، تدعو إلى العنف و تمارسه ، و أصبحت تحمل السلاح في وضح النهار و تفرض نظامها و أسلوب حياتها بالقوة، و لقد أصبح أهل القرى مخيرين ، إمّا البقاء في قراهم و الإستسلام للأمر الواقع ، أو الهجرة إلى المدن و طلب السلامة و مواصلة الحياة في ظروف أخرى.

لقد كان ابن يأجوج و مأجوج يسطو على الفلاحين و التجار و يأخذ أموالهم عنوة ، متذرعا أنها سوف تكون في خدمة الدولة الإسلامية التي ستقوم مستقبلا ، و لكن في حقيقة الأمر ، كانت هذه الأموال تحمل في أكياس يتم تكديسها في بيت ابن يأجوج و مأجوج و برعاية أمه التي أصبح لها شأن ، فهي اليوم أم الأمير و كانت تتدخل مرارا و تكرارا فيمن يجب قتله أو تركه يعيش ، و كانت أول جريمة شنيعة و بشعة نفذها هذا السفاح ، كانت ضد فلاح رفض أن يعطيه أمواله لأنه كان يعرف تاريخ عائلته جيدا ، و أغلظ الفلاح القول للسفاح فقام بذبحه أمام عائلته و أطفاله ، و كانت أول صدمة و قصة مرعبة تتلقاها قريتنا

و القرى المجاورة ، و بعد ذلك أصبح يستهدف المجاهدين و أبناء الشهداء باعتبارهم طواغيت و أزلام النظام ، ثم بعد ذلك توسعت دائرة المستهدفين لتشمل شباب الخدمة الوطنية و أسلاك الأمن المختلفة .

لقد أصبح الأمر فعلا لا يطاق ، و كان لا بد من التصرف و مواجهة هذا التحدي البغيض ، لأن في البداية كان هناك ارتباك واضح في طريقة التعامل مع هؤلاء الوحوش لأن الأمور انقلبت على عقبيها ، و أصبحت الناس تقتل و تذبح و تشرد باسم الإسلام الذي يدعو إليه ابن يأجوج و مأجوج و أمثاله .

لقد كنت أتابع الأوضاع والأخبار بقلق وحذر شديدين ، لقد كنت مستهدفا دون شك ، لأني كنت الغريم التاريخي لإبن يأجوج و مأجوج ، ولكن ما أسعدني وأثلج صدري أن قريتنا كانت دائما متأهبة لكل الإحتمالات ، كانت هناك يقظة وتضامن ووعي مشترك وقناعة راسخة بأن هذه الجماعة ضالة و مجرمة ولذلك يجب مواجهتها و محاربتها ، ولقد استطاع عمي المهدي بخبرته الحربية والعسكرية التي ورثها عن جيش التحرير أن يعد مخططا أمنيا لحماية القرية بالتنسيق مع قوات الجيش الوطني الشعبي سليل جيش التحرير الوطني ، ولكن كان لابد من الفعل واتخاذ المبادرة المناسبة ، بدل الاكتفاء برد الفعل وإنتظار تحركات العدو ، وهو ما كان بالفعل ، إذ قامت السلطات العسكرية في المنطقة بتفويض عمي المهدي باعتباره مجاهدا و أعرف الناس بالمنطقة

بتشكيل أفواج من المقاومين في مختلف القرى والمداشر و البداية سوف تكون من قريتنا ، دعا عمي المهدي الأعيان و بعض الشباب من ذوي الثقة لاجتماع هام وطارئ في بيتنا ، وكان أغلبهم من المجاهدين و أبناء الشهداء ، أعدت خالتي سعدية كل ما يليق بواجب الضيافة ثم انزوت في مكان بين الجمع تستمع لما سيقوله عمي المهدي .

_الله يرحمك يا المقدمة عربية ، يقول عمي المهدي وهو يضرب كفا على كف ثم يواصل حديثه .

_ أشهد أنك حذرنتا من هذا اليوم ، وها هو يأجوج ومأجوج يعود من جديد ، هل تتذكرون يا إخواني وصية المقدمة عربية عند وفاتها ، وهل تتذكرون أيضا وصية الشيخ عبد الوهاب ، أشهد أمام الله أني أذكر و لازلت أذكر كأنه اليوم .

يتبادل الحضور النظرات فيما بينهم ويهزون رؤوسهم خاصة الكبار منهم ، وعندما يتذكرون هذه الوصية يشرعون في البكاء حتى يتعالى نشيجهم ، وعندها تخرج خالتي سعدية إلى البيت المجاور إحتراما للموقف وهي تقول:

_إن دموع الرجال غالية إذا رأيناها فما بالك إذا سمعناها.

فيقاطعها أحد المجاهدين يؤكد كلام عمي المهدي .

_والله إن المقدمة عربية لا تزال حية بيننا كما كانت من قبل ، وإني لأشعر بذلك أكثر من أي وقت مضى ، كلنا نشهد ، كلنا نتذكر ، إنها ولية من أولياء الله الصالحين ، وكل ما قالته قد تحقق سواء في حياتها أو بعد موتها .

ويتدخل مجاهد آخر كله حزم وعزم وإرادة وثبات وبلهجة قاسية لكنها صادقة :

_بحق الله وسيدي عبد القادر الجيلالي والمقدمة عربية ، وحق دموع الرجال الغالية ودماء الشهداء الزكية ، لن أنام في بيتي أو يهدأ لي بال حتى نقضي على ابن يأجوج ومأجوج كما قضينا على أبيه الخائن في الثورة .

وبعد أن هدأ الجميع وسكنت نفوسهم أخذ عمي المهدي الكلمة واسترسل في شرح المهمة والمغزى من هذا الاجتماع .

_ أيها الإخوة ، لقد كلفتني القيادة العسكرية بتشكيل أفواج من المقاومين للدفاع عن أعراضنا ووطننا ومحاربة هؤلاء المجرمين ، فمن يريد أن يتطوع ويسجل اسمه يرفع يده .

لم يكن توقع عمي المهدي خائبا كظنه الصائب دائما في اختيار الرجال وفراسته التي لا تخطئ أبدا إذ قام الجميع من مكانهم وهم يرددون :

_ الله اكبر الله أكبر كلنا معك ، كلنا فداء للوطن.

وحينها يدخل عمي المهدي في نوبة بكاء حتى يبتل وجهه ، يصمت قليلا ، ويمسح دموعه تارة أخرى والذكريات تتطاير أمام عينيه وتتراقص مثل الدخان ، فما أشبه الحاضر بالماضي ، هكذا كان يقول لنفسه ، وهكذا قال للحاضرين :

_ تقريبا يا إخواني إننا نعيش نفس الموقف ، إن التاريخ يعيد نفسه ، أتذكر جيدا عندما جاء سي قابيل رحمه الله إلى الزاوية لتجنيدنا في زمن الثورة ، لم يتخلف أحد من الحضور ، لقد التحق الجميع بالثورة .

_ نعم ، نعم ، نعم .

يجيب أحد المجاهدين وهو يتذكر هذا اليوم :

_ أتذكر هذا اليوم جيدا يا سي المهدي ، أليس هذا اليوم الذي قال لنا فيه سي قابيل :

_ من أجل أن تحيا الجزائر فلا بد أن يموت أغلى الرجال ؟

_ صدقت ، صدقت يا أخي وإنكم لأغلى الرجال .

ويسأل مجاهد آخر :

_ ولكننا ياسي المهدي ، نحن نعرف استخدام السلاح ولكن الشباب من يدربهم على ذلك .

_شكرا إنه سؤال مهم ، وكنت أريد أن أناقشه معكم ، فكل مجاهد يأخذ مجموعة من الشباب ويقوم بتدريبهم ، السلاح موجود وسوف يكون عندكم هذه الليلة ، كل واحد منكم سوف يصله سلاحه إلى بيته مع الذخيرة ونلتقي في الصباح لتقييم الوضع.

إنصرف الجميع إلى البيت وكلهم شجاعة وإصرار بعد أن إتضحت الرؤية لهم جيدا ، وبقي عمي المهدي وأراد أن يحدثني على انفراد .

_ خيرا إن شاء الله يا عمي المهدي ، سوف أكون أول من يحمل السلاح وأول من يطلق الرصاص ضد ابن يأجوج ومأجوج وأتباعه .

_ كن حذرا يا عبد القادر ، فلقد وصلتني معلومات مؤكدة أن ابن يأجوج ومأجوج قد أعد قائمة بالأسماء من أجل تصفيتهم ، وأنت موجود الثاني في القائمة.

إبتسمت قليلا لأني كنت أعرف ذلك وأجبته :

_ الثاني إذن ، هذا حظ جيد ، أما أنا فأريده الأول في قائمتي ، ولم أسأله عن الإسم الأول في قائمة ابن يأجوج ومأجوج لأنه كان عمي المهدي بدون منازع .

(22)

إنتشرت أخبار القتل والإرهاب في كل مكان ، وأصبح إسم ابن يأجوج ومأجوج على كل لسان ، رمزا للرعب والتوحش ، ولقد حاصرته قوات الجيش الوطني الشعبي عدة مرات واستطاعت أن تقضي على الكثير من عناصره إلا أنه كان يفلت متسللا من ساحة المعركة ، كان مثل الكلب بسبعة أرواح ، ولكن كما يقول المثل الشعبي (يا قاتل الروح وين تروح) . ولقد سمعنا أنه اشترى لأمه فيلا بإحدى المدن الساحلية ، وكنا نعرف ذلك ، ووضعت هذه الفيلا تحت المراقبة ليلا ونهارا لمعرفة من يتردد عليها ، وهي طريقة خبيثة من ابن يأجوج ومأجوج لتهريب الأموال وتبييضها والتي كان يأخذها بالغصب والإكراه من المواطنين بقوة السلاح والسواطير والسكاكين الحادة ، كنت أعرف أنا وعمي المهدي أن الدور سوف يأتي على قريتنا عاجلا أم آجلا ، لأن ابن يأجوج ومأجوج كان يحمل في نفسه حقدا دفينا لا حدود له ضدنا ، لذلك كان الحذر واجبا وكنا نقوم بتوعية الإخوان الذين تطوعوا معنا لحمل السلاح، وكنا نراقب تحركاته وأعماله الإجرامية باستمرار ، وكان عمي المهدي ينسق مع قوات الجيش الوطني الشعبي ويطلعهم على تضاريس المكان بدقة ، الجبال والشعاب والوديان وعدد المخابئ ومكان تواجدها والتي كانت تستعمل في زمن الثورة ، والتي استغلها الإرهابيون فيما بعد كأماكن للإختباء ومراكز للتموين وبفضل هذه المعلومات التي وفرها عمي المهدي تم القضاء على الكثير من أفراد الجماعات الإرهابية وتشتت

شملهم فازداد أمراؤهم غيظا وحقدا ، وأصبح رأس عمي المهدي مطلوبا بشدة عند هذه الجماعات ، وراحوا يعدون الخطط لمهاجمة القرية واغتيال عمي المهدي وجميع الرفقاء ، ولم تمر إلا أيام قليلة بعد ذلك حتى جاء اليوم المنتظر حيث إستعان ابن يأجوج ومأجوج ببعض الجماعات الإرهابية من مناطق أخرى لأن جماعته تقلصت كثيرا ، وجمعهم في مكان بعيد في الغابة وراح يشرح لهم تفاصيل المهمة وأهدافها .

_ تعرفون أن الطاغوت المهدي هو عدو الجماعة والإسلام وأن القضاء عليه وعلى أتباعه واجب شرعي ونتقرب به إلى الله كي يدخلنا وإياكم الجنة ، ولقد أفتى القاضي الشرعي للجماعة بالقضاء على كل أفراد القرية ، لا تتركوا كبيرا ولا صغيرا ولا شيخا ، كلهم طواغيت وعبدة الأوثان والأضرحة ، إنهم كفار ومن واجبنا محاربتهم والقضاء عليهم جميعا .

ويسأله أحد الإرهابيين.

_ أيها الأمير ، أرى أنه من الواجب قبل مهاجمة القرية أن نهدم مقام المقدمة عربية وسيدهم عبد القادر الجيلالي وهكذا نمحي أثرهم وإلى الأبد.

يوافقه ابن يأجوج ومأجوج على الفور بعد أن انشرح صدره

_ صدقت أيها المجاهد العالم ، لابد أن نمحي أثرهم وإلى الأبد ، هيا تحركوا على بركة الله.

وعندما تسلقوا الجبل لم يصدقوا أعينهم وكانت دهشتهم كبيرة واستغرابهم أكبر ، لقد اختفت المقامات ووجدوا أرضا مسطحة في قمة الجبل معشوشبة مزينة بشقائق النعمان وليس بها آثار أو بقايا للهدم ، لا بد من تفسير للموقف ، ولكن ماهو التفسير المقنع ...؟

يسأل رشيد وهو أحد الطلبة الجامعيين المغرر بهم .

_ هل هذه كرامة من كرامات المقدمة عربية وسيدي عبد القادر الجيلالي ، لقد سمعت من أمي الكثير عن هذه الكرامات وكانت كلها صادقة .

تفجر هذه العبارة غضب ابن يأجوج ومأجوج وحقده بعد أن لاحظ التململ والتردد والدهشة على وجوه أتباعه .

_ تقول سيدي ، أنت إذن مثلهم لقد كفرت والكافر يقتل ، هيّا أقتلوه على الفور.

بدأ أفراد الجماعة ينظرون إلى بعضهم البعض وبدا عليهم نوع من التردد ، ولكن تحت تأثير صياح ابن يأجوج ومأجوج شرعوا في تنفيذ حكم الإعدام على رشيد بفصل رأسه عن جسده .

_ إنه مجرد سحر وطلسمات و أعمال الشياطين ، ولكن إن اختفت المقامات فان القرية لن تختفي ، هيا لنفك هذا السحر بسلاحنا وهذه السواطير التي لا تخطئ الرقاب .

في الحقيقة لم نكن نتوقع هذا العدد الهائل من الإرهابيين الذين هاجموا قريتنا في تلك الليلة وفي المقابل لم يكن عددنا كبيرا من حملة السلاح ، وكان أول من اشتبك بهم هو الحاج عبد الرحمان الذي كان في نقطة متقدمة ، وما إن سمعنا الرصاص حتى قام عمي المهدي بتنظيمنا وتوجيهنا ، كان الرصاص كثيفا وكنا نرى الجمار الحمراء الملتهبة مثل الخطوط المتشابكة في كل الإتجاهات ، مما يعني أن عددهم كان كبيرا ، وهذا ما أدركه عمي المهدي الذي قام على الفور بواسطة اللاسلكي بالإتصال بقوات الجيش الوطني الشعبي المتمركزة في إحدى الجبال ، لكن كان لا بد من المقاومة والثبات حتى تلحق هذه القوات ، تبادلنا إطلاق النار وكانت طلقاتنا تصيب بدقة لأننا كنا متمركزين جيدا ، طلبنا من أهل القرية أن يطفئوا النور في بيوتهم وكنا نسمع صراخ الأطفال ودعاء الشيوخ

_ يا لله بجاه النبي محمد وسيدي عبد القادر الجيلالي والمقدمة عربية .

وكان عمي المهدي يتحرك من مكان لآخر ، يرفع معنويات المقاومين ويتفقد الجرحى والإصابات، استشهد الحاج عبد الرحمان وخمسة من مجموعته ورأينا دخانا يتصاعد من فوق ساحة المدرسة ، لقد أعطى ابن

يأجوج ومأجوج الأمر بحرقها ، هذه المدرسة التي تحمل اسم محمد أبي الشهيد والتي فتحت أبوابها لإبن يأجوج ومأجوج وأمثاله من أبناء الخونة.

غمرني حينها إحساس غريب وحماس كبير جعلني أتحدى الموت في هذه اللحظة ، وشعرت أنه يقصدني شخصيا ويريد تصفية حسابه معي ومع عائلتي ، لذلك تركت مكاني المحصن وحملت سلاحي وتوجهت إلى المدرسة رغم تحذيرات عمي المهدي .

_ عبد القادر إبق مكانك لا تغادر توقف...

لكن دون جدوى ، إذ كانت هناك قوى قاهرة تملكتني ولبستني كليا ومنعتني من الاستجابة لأوامر عمي المهدي ، وعندما أدرك أني لا أستمع إليه أخذ مجموعة وتبعني وكان متمرسا في القتال ، إذ استطاع أن يقضي على عدد كبير من الإرهابيين الذين كانوا في طريقهم إلى الانسحاب من محيط المدرسة بعد حرقها ، ولم يمر وقت طويل حتى وصلت قوات الجيش الوطني الشعبي التي طوقت المكان من كل الجوانب بعد أن أعطاهم عمي المهدي الإحداثيات بدقة متناهية ، وفجأة تغيرت موازين القوى وأصبحت المعركة لصالحنا و رأينا أشلاء الإرهابيين تتطاير في الهواء ، ولكن ابن يأجوج ومأجوج كان يحثهم على المقاومة وعدم الإستسلام حتى يستطيع التسلل ويحقق مخطط الهرب الذي تعود عليه ، ولكني كنت له بالمرصاد ، فلا نجوت إن نجا اليوم ، تتبعت خطواته ولحق

بي عمي المهدي ومجموعة من المقاومين ، ورحنا نطارده مثلما يطارد الصياد ذئبا مفترسا ، وعندما حاصرته نيراننا تحصن وراء شجرة قديمة وبدأ في إطلاق النار ، فأطلقنا بدورنا رصاصا كثيفا ، ولكن طلقات عمي المهدي كانت مصوبة ودقيقة جدا ، ، وبعد لحظات وصل الضابط رضوان رفقة مجموعة من الجنود وأخبرنا أنه تم القضاء على جميع الإرهابيين وأن القرية كانت مقبرة لهم وللأبد .

أوقفنا إطلاق النار بعد أن توقف من الجانب الآخر ، وراح عمي المهدي يقترب بحذر من الشجرة فوجد ابن يأجوج ومأجوج جثة هامدة وأخبرنا بذلك على الفور وطلب منا أن نأتي لمشاهدة نهاية هذا الوحش الدموي الذي سفك الكثير من الدماء ، تأملت وجهه الأسود جيدا ، وكان وجها موحشا ومقفرا ورائحة جسمه النتنة الكريهة تلوث المكان ، ورحت أتحدث إليه وكأنه حي .

_ اليوم أنهينا عارك وإلى الأبد فإلى الجحيم الأبدي.

وفجأة شعرت بالفشل والدوار ، فقدت توازني وسقطت على الأرض ، لأني لم أنتبه إلى الرصاصة التي اخترقت ساقي وخرجت منه ، مما سبب لي نزيفا حادا في الدم ، طلب الضابط رضوان مروحية عسكرية على الفور حملتني إلى المستشفى العسكري بوهران .

عندما خرجت من المستشفى بعد أن قضيت فيه شهرا كاملا ، عدت قافلا إلى قريتنا رفقة صديق أتى ليقلني بسيارته الخاصة إلى البيت حيث كانت تنتظرني خالتي سعدية بفارغ الصبر وهي لا تصدق أني مازلت على قيد الحياة ، وفي مفترق الطرق إذ كانت اليمنى طريق القرية واليسرى طريق الجبل طلبت من صديقي أن يوقف السيارة ، لم يناقش الأمر ، أوقف المحرك وراح يتأمل حركاتي ، نزلت ، أخذت نفسا عميقا ثم وجهت نظري صوب الجبل وكأني أراه للمرة الأولى وفي علوه الشامخ ينتصب مقام سيدي عبد القادر الجيلالي والمقدمة عربية كأنهما في حالة معراج دائم بين السماء والأرض ، جالت بذهني خواطر وهواجس وذكريات و أحسست أن الزمن قد توقف في نقطة ما ، وكأن الجبل كتاب مفتوح يريدنا أن نقرأه في كل وقت وفي كل زمان ، إنفتحت جراحي وسالت غزيرة في قلبي ، بعدما جفت الدموع وتوقف السيل وصور الشهداء تملأ المكان و المدى .

وضعت رأسي بين يدي ورحت أصرخ وأصرخ بأعلى صوتي:

_ آه أيها الجبل ، ما أوسع فضاءك وما أقصر نظرنا ، هل تستطيع ذاكرتنا البائسة أن تحتوي أسرارك وتحكي عجائبك ، ما أطهرك وما أقبحنا ، ما أسعدك وما أتعسنا ، آه أيها الجبل هل نستطيع النسيان في حضرتك حتى ولو أردنا ذلك ... وهل تختفي يوما حتى نشفى من جراحنا ، آه أيها الجبل ،هل ستبوح لغيرنا بأسرارك بعد موتنا ؟ مات الأحبة

والأصدقاء والأهل وبقيت ، متنا ونحن أحياء وبقيت ، مات الموت وبقيت ، إذن أيها الجبل:

تجلى ، تجلى ، تجلى

وليكن ما يكون .

إصدارات الباحث والكاتب الدكتور قادة جليد

كاتب وباحث وقاص وروائي جزائري من مواليد 1968/12/29 ببلدية فروحة ولاية معسكر ، متحصل على شهادة دكتوراه دولة في الفلسفة بدرجة مشرف جدا من جامعة وهران سنة 2006 ، أستاذ محاضر في الفلسفة سابقا في كل من جامعة وهران ومعسكر ويشتغل حاليا أستاذا للفلسفة بالمركز الجامعي أحمد زبانة بغليزان.

الكتب المنشورة:

1_العلية في التاريخ ما بين ابن خلدون وهيغل ، دار القدس العربي ، 2013.

2_ سؤال العقل والتاريخ في الجزائر : مقاربات أولية ، دار القدس العربي سنة 2016

3_ رجل سماوي لإمرأة أرضية، مجموعة قصصية، دار القدس العربي 2014.

الأعمال والكتب الجماعية

_ دراسة تشخيصية لواقع الفلسفة في التعليم الثانوي (الملتقى الوطني لمادة الفلسفة) مديرية التربية لولاية مستغانم بالتنسيق مع قسم الفلسفة بجامعة وهران سنة 1997

_ تعليمية الفلسفة في الجزائر : من التلقين إلى الحوار (أعمال الملتقى الوطني حول تعليميات العلوم الإنسانية) مجلة المبرز عدد خاص ، المدرسة العليا للأساتذة بو زريعة ، الجزائر ، سنة 2000

_ الفلسفة الأرسطية وامتداداتها في الفكر الخلدوني (أعمال الملتقى الدولي الثاني في الفلسفة) جامعة منتوري قسنطينة سنة 2001

_نظرية نهاية التاريخ في الغرب : دعوة علمية أم دعاية إيديولوجية ، مجلة الكلمة ، لبنان ، ع35 ،2002

_ قراءة في المرجعية الثقافية عند هشام شرابي (أعمال الندوة الفكرية حول فكر هشام شرابي ، النقد الحضاري بين الإختلاف والحداثة) مخبر الفلسفة وتاريخها ، جامعة وهران سنة2002 .

_ نقد التراث والآخر عند حسن حنفي ، حوارات الإسكندرية (أعمال الملتقى السنوي للجمعية الفلسفية المصرية) مصر سنة 2008.

_ نحو فلسفة جديدة للتاريخ العربي عند حسن حنفي ، مجلة كتابات معاصرة ، لبنان ع 75 ،2010 .

_ philosophie, discours et méthode, séminaire de formation sur le questionnement philosophique (institut de pratiques philosophique) paris 2011.

_ الفلسفة في زمانها عند هيغل، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع 99، 2016.

_ هيغل و الثورة الفرنسية ، مجلة كتابات معاصرة ، ع100 ، 2017 .

_ عضو الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية .

_ عضو الجمعية الفلسفية المصرية .

_ له مقالات منشورة في العديد من الصحف الوطنية و الدولية .

رواية " تجليات جبل "

تحاول هذه الرواية أن تنغرس في الموروث الشعبي و الديني للمجتمع الجزائري الذي يعد الركيزة الأساسية في بناء و تشكل الوعي الجماعي والتمثلات الوجودية للحياة، و تسلط الضوء على مرحلة مهمة من تاريخنا، تاريخ الثورة التحريرية و ما تحمله من إشراقات و مرحلة المأساة الوطنية وما تحمله من بشاعة وإفتراءات و تحاول أن تربط بين المرحلتين لتكتشف عقد التاريخ التي تنفجر في منعطفاته الحاسمة والخطيرة.

الدكتور قادة جليد

Djellid.kada@gmail.com

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.